

سِلْسِلَةٌ
وَقَفَاتِ تَرْبُوتِيَّةٍ
فِي ضَوْءِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

المجلد الثاني

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

حقوق الطب مع محفوظة للمؤلف

إلّا لمن أراد طبّعه وتوزيعه

مجاناً

بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي

للطباعة والتجليد

٠٠٢٠١٣١٩٩٩٥٥٥

وقف الله تعالى
ولا يجوز بيعه

وقف لله تعالى
ولا يجوز سبعمه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد الثاني

ويضمّن الرسائل:

وكونوا مع الصادقين

[سورة التوبة: ١١٩]

ولا تلبسوا الجلباب

[سورة البقرة: ٤٢]

عبد العزيز بن ناصر المجالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرسالة السابعة
وَكُنْ مَعَ الصَّادِقِينَ

[التوبة : ١١٩]

عبد العزيز بن ناصر المجالي

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي
له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عزوجل خلق السموات والأرض بالحق وخلق الخلق ليعبدوه ،
وأمرهم بأن يقيموا حياتهم على الإيمان الحق الذي قامت عليه السموات
والأرض ، ولا يكون الإيمان حقاً حتى يكون قائماً على الصدق المقتضي
للإخلاص التام لله عزوجل باطناً وظاهراً ، والمقتضي للمتابعة الصادقة
للسول ﷺ في جميع الأحوال . وبالتالي تسعد البشرية بهذه الحياة المبنية
على الحق والصدق ، وعندئذ تختفي كل مظاهر الظلم والكذب والنفاق
والتي ترزح البشرية اليوم تحت وطأتها وتكتوي بناها .

إن حيرة البشر اليوم وشقوتهم ترجع إلى انحرافهم عن هذا الأصل
الواضح ، وإلى تسلط أكاذيب وأوهام المنافقين والدجاجلة على أنفسهم
وأفكارهم حتى أبعدهم عن الصراط المستقيم والنهج القويم .

إن منزلة الصدق منزلة عظيمة في دين الإسلام بل في جميع الأديان ، لا
لأن الصدق خلق من الأخلاق الحميدة فحسب ، بل لأنه أصل الإيمان المقبول
عند الله عزوجل ، وهو أساس النجاة من عذاب الله عز وجل ، وبه يتميز

أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في منزلة الصدق: « وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران. وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ على شيء إلا قطعته، ولا واجهه باطلاً إلا أرداه وصرعه. مَنْ صال به لم ترد صولته، ومن نطق به عَكَتْ على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال، وَمَحَكَّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة «النبوة» التي هي أرفع درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل وَمَعِينٌ»^(١).

من الكلام السابق لابن القيم رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الصدق وخطورة شأنه، ومدى الحاجة الماسة إلى معرفة حقيقته ومعناه؛ حتى تنصبغ قلوبنا وألسنتنا وجوارحنا به، فلا نكنّ في صدورنا إلا الصدق، ولا نقول إلا الصدق، ولا نعمل إلا الصدق، ويالها من مرتبة ما أعزها، وغاية ما أشرفها وأعظم أجرها، والناس فيها متفاوتون، وفي الوصول إليها متنافسون.

ولا يصل إلى تكميل هذه المنزلة إلا أولو العزائم القوية من أهل الإيمان والعلم والعمل الذين وفقهم الله عزوجل وأوصلهم إليها: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن عظم منزلة الصدق وشدة

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦٨).

حملة : « وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي ، لا يطيقه إلا أصحاب العزائم ، فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل . والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة . فهو حامل له في أي موضع اتفق ، بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة ، فهو لا يتقلب تحت حملة ولا يجد ثقله »^(١) اهـ .

أهمية الموضوع :

لقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة وأثار السلف في فضل الصدق وخطورة أمره وعلو شأنه .

ولقد اخترت في هذه الرسالة (من رسائل الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم) أن يكون عنوانها (وكونوا مع الصادقين) ، وهي جزء من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] وذلك لأنطلق منها إلى هذا الموضوع المهم الذي يهم كل مسلم بصفة عامة ، ويهم الدعاة إلى الله عزوجل بصفة خاصة ، وبالذات في واقعنا المعاصر ، وإن أهميته لتأتي من الأمور التالية :

الأمر الأول :

لأنه أساس الإيمان وركنه الركين ، وأساس قبول الطاعات والقربات عند الله عزوجل ، وعليه يترتب الأجر والثواب يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

(١) مدارج السالكين (٢/٢٧٦) .

ولأنه أساس الطاعات وجماعها أصبحت الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي الصدق، يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«الصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها، ويظهر ذلك من وجوه [منها]:

* أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١)، وفي حديث آخر «على كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة»^(٢). ووصف الله المنافقين في القرآن بالكذب في مواضع متعددة، ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة، وأن المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار.

* أن الصدق هو أصل البر، والكذب هو أصل الفجور كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٣).

* أن الصادق تنزل عليه الملائكة والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾

(١) البخاري في الإيمان (٣٣) / فتح (١١١ / ١)، مسلم في الإيمان (٥٩) / (٧٨ / ١).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٥٢ / ٥) بنحوه، وضعفه الألباني / السنة (١١٤).

(٣) البخاري في الأدب (٦٠٩٤) / فتح (٥٢٣ / ١٠)، مسلم في البر والصلة (٢٦٠٧) /

(٢٠١٣ / ٤).

يَلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣] » اهـ. باختصار^(١).

الأمر الثاني :

إن الصدق في كل الأمور يوصل صاحبه إلى مرتبة الصديقية التي هي المرتبة التالية لمرتبة النبوة، وعندما نقول: «في كل الأمور» نريد بذلك عدم حصر الصدق في اللسان فقط، وإنما الصدق في النيات والأقوال والأعمال وتحري الصدق دائماً في ذلك كله. إن مجاهدة النفس على تحري الصدق في جميع الأمور يوصلها إلى هذه المرتبة العظيمة: «مرتبة الصديقية» كما جاء في الحديث السالف الذكر «... وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(٢)، وهنياً لمن وصل إلى هذه المرتبة فيالها من رتبة ما أشرف قدرها وأعظم فضلها.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في وصف أهل هذه الطبقة:

« (الطبقة الرابعة): ورثة الرسل وخلفاؤهم في أمهم، وهم القائمون بما بعثوا به علماً وعملاً ودعوة للخلق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم. وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي مرتبة الصديقية، ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول وأمتة، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه، وهم المضمون

(١) مجموع الفتاوى (٧٤/٢٠ - ٧٧) باختصار وتصرف.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١) اهـ.

ثم يقول بعد ذلك رحمه الله تعالى: «والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الأمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره مادام ذلك جارياً في الأمة على أباد الدهور.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»^(٢)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء»^(٣). وصح عنه ﷺ أيضاً أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٤)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٥).

وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «... إن العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها»^(٦)، وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله

(١) طريق الهجرة ص ٦١٤ ط. الشئون الدينية - قطر.

(٢) البخاري في الجهاد (٢٩٤٢)/فتح (٦/١٣٠)، مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٦)/ (٤/١٨٧٢)، كلاهما بنحوه.

(٣) مسلم ك العلم (١٠١٧)/ (٤/٢٠٥٩).

(٤) مسلم ك الوصية (١٦٣١)/ (٣/١٢٥٥) بنحوه.

(٥) البخاري في العلم (٧١)/فتح (١/١٩٧)، مسلم في الزكاة (١٠٣٧)/ (٢/٧١٨).

(٦) الترمذي ك العلم (تحت ٢٦٨٣)/ (٧/٣٢٥)، وأخرجه أيضاً غيره، وهو جزء من حديث طويل صححه الألباني. والذي فيه: «الحيتان في الماء» بدلاً من: «النملة في جحرها».

وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»^(١)، وعنه عليه السلام أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(٢)، وعنه عليه السلام: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير يبي سائر الناس بعد»^(٣)، وعنه عليه السلام أنه قال: «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»^(٤)، والأحاديث في هذا كثيرة.

وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها؛ أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقاً وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة يملئ فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب.

تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات. فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه.

-
- (١) الترمذي ك العلم (٢٦٨٦) / (٣٢٧ / ٧) بنحوه، وصححه الألباني.
- (٢) هو جزء من الحديث المخرج قريباً في الترمذي (تحت ٢٦٨٣) وطره: «من سلك طريقاً يتبغي فيه علماً...».
- (٣) رواه الطبراني بنحوه في الكبير (١٠٤٦١)، وفي الأوسط (٧٥٧١)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (٤١٤).
- (٤) الترمذي بمعناه ك العلم (٢٦٦٠) / (٣٠٧ / ٧). وفي الباب أحاديث بمعناه عن جمع من الصحابة وهي مخرجة في السنن، وصححها الألباني.

وأصحاب هذه المرتبة يدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضاً: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»^(١) «^(٢) اهـ.

الأمر الثالث :

ومما يؤكد أهمية الصدق تلك الثمرات العظيمة التي تحصل منه في الدنيا والآخرة من البركة والقبول والإصلاح في الدنيا، والأجر العظيم والثواب الجزيل في الآخرة. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في (ثمرات الصدق) في آخر البحث.

الأمر الرابع :

خطورة الكذب والنفاق وأثرهما على الفرد والمجتمع والأمة، وخاصة في مجتمعاتنا اليوم والتي كثر فيها الكذب والدجل والمداينة، وقل الصدق فيها والصادقون. ولا أعلم - والعلم عند الله - عصراً ظهر فيه الكذب والنفاق بوسائله الماكرة المتطورة كما ظهر في عصرنا اليوم، حتى أصبح الكذب والمكر له مدارس وأساليبه التي تعلم الناس كيف يكذبون، وكيف ينافقون، وكيف يدلسون . . إلخ.

ولا أبالغ إذا قلت: إن وسائل الإعلام اليوم - المقروء منها والمسموع

(١) الحديث أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (٥٤)، وابن عبد البر في التمهيد (٥٩/١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٩/١٠).

(٢) طريق الهجرتين ص ٦١٩ ط. الشئون الدينية بقطر.

والمنظور - قد قامت في أغلب برامجها على الكذب وقلب الحقائق، وتسمية الأمور بغير مسمياتها.

وقد تجاوز الأمر حده حتى أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأصبحنا نسمع من يقول عن المسلم الصادق الذي يتحرى الصدق بأنه ساذج وبسيط وسطحي... إلخ، في الوقت الذي يوصف الكاذب والمنافق بأنه السياسي الحكيم المحنك.

إن مجتمعاً كهذا حري بالسقوط والدمار، ولا نجاة ولا فلاح إلا بالصدق، والأمة الصادقة مع ربها سبحانه ومع رسولها ﷺ ومع أبنائها لا تهزم أبداً.

الأمر الخامس :

ظهور بعض علامات ضعف الصدق في صفوفنا معشر الدعاة إلى الله عزوجل، وذلك بوجود بعض التصرفات والممارسات التي تتنافى مع الصدق في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ فقل الصادقون الربانيون الذين يصدقون في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم ويضحون في سبيل الله عزوجل بكل ما يملكون لنيل مرضات الله عزوجل وجنته.

نعم إنه بمحاسبة عجلي لنفوسنا يتبين لنا هذا الضعف وأنا في أمس الحاجة إلى تقوية هذا الأمر، ونبذ كل ما يتنافى معه من صور الكذب والنفاق ووهن العزيمة وضعف الهمة. وإلا فما معنى وجود هذه الجهود الضخمة المبذولة اليوم في طريق الدعوة إلى الله عزوجل ثم لا نرى لها إلا

أثراً ضعيفاً لا يوازي تلك الجهود المبذولة .

الأمر السادس :

إن الصراع الذي نشاهده اليوم بين الحق والباطل ، بين دعاة الشر والكفر ودعاة الخير والإصلاح ؛ ليحتم على أهل الخير حرصهم الشديد على الصدق مع الله سبحانه واليقين بنصره وثوابه ؛ حتى لا تنزل الأقدام وتضعف العزائم إزاء هذا البلاء العظيم والمعركة الشرسة بين الحق والباطل . وهذه المواطن هي التي يتميز فيها الصادقون عن سواهم ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت : ١ - ٣] ، وكذلك أيام الفتن لا يثبت فيها إلا الصادقون العالمون العاملون ، وهم الذين يشرفهم الله عزوجل بنصره ، ويمكن لهم في الأرض ، ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين .



حقيقة الصدق و معناه

تعريف الصدق :

قال في لسان العرب (باختصار) :

«الصدق : نقيض الكذب . صَدَقَ يَصْدُقُ صَدَقًا وَصَدَقًا وَتَصَدَقًا . وَصَدَّقَهُ : قبل قوله ، وَصَدَّقَهُ الْحَدِيثُ : أنبأه بالصدق . وَيُقَالُ : صدقت القوم أي قلت لهم صدقاً . والمصدَّقُ : الذي يصدقك في حديثك . ورجل صدق وامرأة صدق : وُصِفَا بالمصدر .

والصدِّيقُ : الدائم التصديق ، ويكون الذي يصدق قوله بالعمل ، وفي التنزيل ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥] أي مبالغة في الصدق والتصديق . وهذا مصداق هذا : أي ما يصدق . ورجل ذو مَصْدُقٍ بِالْفَتْحِ : أي صادق الحملة ، يقال ذلك للشجاع والفرس الجواد ، وصادق الجري . ومصداق الأمر : حقيقته» اهـ . لسان العرب .

وقال الراغب : «أصل الصدق والكذب في القول ماضياً كان أو مستقبلاً وعداً كان أو غيره ، ولا يكونان بالقصد الأول إلا في الخبر ، وقد يكونان في غيره كالاستفهام والطلب . والصدق : مطابقة القول الضمير ، والمخبر عنه ، فإن انخرم شرط لم يكن صدقاً ، بل إما أن يكون كذباً أو متردداً بينهما على اعتبارين ، كقول المنافق : «محمد رسول الله» فإنه يصح أن يقال : «صدق» لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح أن يقال : «كذب» لمخالفة

قوله ضميره، والصديق من كثر منه الصدق، وقد يستعمل الصدق والكذب في كل ما يحق ويحصل في الاعتقاد نحو: صدق ظني، وفي الفعل نحو: صدق في القتال ومنه «قد صدقت الرؤيا»^(١) اهـ (ملخصاً).

من هذه التعريفات السابقة للصدق يتضح لنا معنى الصدق اللغوي، وأنه نقيض الكذب، وهو مطابقة القول للعمل، ومن هذا التعريف استمدت حقيقة الصدق الواردة في كتاب الله عز وجل وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، وذلك فيما يلي:

حقيقة الصدق:

إن حقيقة الصدق أوسع من كونها الصدق في الحديث فقط، وإنما حقيقة الصدق شاملة لصدق النية والعزيمة وصدق اللسان وصدق الأعمال كما سيتبين بتفصيل ذلك - إن شاء الله تعالى - في (مراتب الصدق).

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدين تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»^(٢)).

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة؛ إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة

(١) مفردات الراغب ص ٤٠٩.

(٢) البخاري بنحوه الاستئذان (٦٢٤٣)/فتح (٢٨/١١)، مسلم بنحوه أيضاً القدر

(٢٦٥٧)/(٢٠٤٦/٤).

جازمة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يريدون بالصادق؛ الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذباً في خبره أو كاذباً في عمله كالمرائي في عمله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَءُونَ النَّاسَ . . . الْآيَةَ﴾ [النساء: ١٤٢] (١) اهـ.

ويفصل الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى القول في هذا المعنى فيقول:

« والإيمان أساسه الصدق، والنفق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالذي جاء بالصدق: هو مَنْ شَأْنُهُ الصِّدْقُ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ وَحَالِهِ. فالصدق: في هذه الثلاثة.

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال، كاستواء السنبلة على ساقها.

والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد.

(١) مجموع الفتاوى (١٤/١٠).

والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوسع ، وبذل الطاقة .

فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق . وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به : تكون صديقيته . ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه : ذروة سنام الصديقية . سُمي «الصدق» على الإطلاق ، و«الصدق» أبلغ من الصدوق ، والصدوق أبلغ من الصادق .

فأعلى مراتب الصدق : مرتبة الصديقية . وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ ، مع كمال الإخلاص للمرسل^(١) .

الفرق بين الصدق والإخلاص :

« الصدق والإخلاص عملان قلبيان من أعظم أعمال القلوب وأهم أصول الإيمان . فأما الصدق فهو الفرقان بين الإيمان والنفاق ، وأما الإخلاص فهو الفرقان بين التوحيد والشرك - في قول القلب واعتقاده أو في إرادته ونيته . والأعمال - التي رأسها وأعظمها «شهادة أن لا إله إلا الله» - لا تقبل إلا بتحقق الصدق والإخلاص .

ومن هنا كانا شرطين من شروطها ، وأكذب الله المنافقين في دعوى الإيمان ، وقول الشهادة لانتفاء الصدق فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣] .

(١) مدارج السالكين (٢/٢٦٩) .

كما أبطل سبحانه زعم أهل الكتاب والمشركين أن دينهم هو الحق بانتفاء الإخلاص فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] ، إلى أن يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ .

[البينة: ٥]

والصدق والإخلاص مع تقاربهما ومع ترادفهما أحياناً يعرف التمييز بينهما بضد كل منهما: فالصدق ضده انتفاء إرادة الله بالعمل أصلاً كمن آمن أو صلى كاذباً ولم يرد الإيمان والصلاة وإنما فعل ذلك لسبب آخر، كما فعله المنافقون حفظاً لأنفسهم وأموالهم من السيف، وجنباً عن تحمل أعباء المواجهة الصريحة للإيمان.

والإخلاص ضده انتفاء إفراد الله بالإرادة والتوجه كمن آمن أو صلى صارفاً ذلك لأحد مع الله، وهذا هو الشرك الذي وقع فيه أكثر العالمين ومنهم أهل الكتاب والمشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء من الأنبياء أو غيرهم وعبدوهم زاعمين أنهم يقربونهم إلى الله زلفى. ومما يميز بينهما أن الصدق لا يختص بالاعتقاد بل يكون في الأعمال أيضاً بخلاف الإخلاص فإنه عمل قلبي محض لكن تظهر آثاره على الجوارح، وعلى قدر تحقيق العبد لشعب الإيمان وأعماله يكون حظه من الصدق حتى يصل إلى درجة «الصدقية»، وعلى قدر ما يحقق العبد الإخلاص لربه يكون ترقيه في «المخلصين» الذين صرف الله عنهم غواية الشيطان وأثنى عليهم في كل أمة^(١) أه.

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ٤٣٨. (رسالة جامعية).

مجالات الصدق كما يجب

مما سبق يتبين لنا أن حقيقة الصدق تشمل :

١. صدق النية :

بأن تكون خالصة لله عزوجل وابتغاء مرضاته، وأن لا يكون هناك باعث في الحركات والسكنات إلا لله عزوجل، فإن شاب النية شيء من حظوظها لم تكن صادقة، وإن تكلم العبد بلسانه خلاف ما في قلبه فهذا أيضاً دليل على عدم الصدق في النية. والأدلة في ذلك كثيرة منها قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ يَقُولُونَ بِاللَّسْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١]، وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

والأحاديث في ذلك كثيرة أشهرها حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعربهم النار يوم القيامة^(١).

ومن الصدق في النية: الصدق في العزيمة على الفعل إذا تمكن منه؛ لأن النية قد تكون صادقة لكن العزيمة على الفعل ضعيفة وصاحبها متردد، وقد تكون العزيمة صادقة لكن إذا جد الجد وعزم الأمر وهاجت الشهوات خارت وضعفت في بدايته ولم يحصل الوفاء بالعزيمة، وقد لا تضعف في البداية

(١) انظر الحديث بطوله في صحيح مسلم - كتاب الإمارة (١٩٠٥) / (٣/١٥١٣).

لكن إذا باشرت الفعل وذاقت مرارته ضعفت ونكلت ، والموفق من وفقه الله تعالى وأمه بعونه ورحمته ولو وكل العبد إلى نفسه ضاع وهلك . . . فيأحي يا قيوم برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً . . .

وقد ذكر صاحب الإحياء كلاماً جيداً حول هذه المسألة نقله باختصار حيث يقول :

« فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه : إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعة - أو بشطره ، أو إن لقيت عدواً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق هاهنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، إذا لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى .

والصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد : بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات .

وأما الصدق في الوفاء بالعزم ، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكّن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء

بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقد روي عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرأ مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ فقال: واهماً لريح الجنة! إنني أجد ريحها دون أحد. فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته بنت النضر: ما عرفت أخي إلا بينانه^(١)، فنزلت هذه الآية: ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(٢) اهـ.

ونختم الحديث عن صدق النوايا والعزائم بما قصه الله سبحانه علينا في كتابه الكريم عن الملائكة من بني إسرائيل الذين جاءوا من بعد موسى عليه السلام، وطلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، وفي هذه القصة من العبر والدروس خير شاهد على ما سبق الحديث عنه من صدق العزائم وضعفها، وأن أصحاب العزائم الصادقة مع الله عز وجل هم الذين يثبتون إذا عزم الأمر وهم الذين ينصر الله بهم دينه ويدفع بهم الفساد عن الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

يقول الله تعالى في معرض قصة هؤلاء الملائكة مع قائدهم طالوت وما جرى لهم من الاختبار الذي تنكشف به العزائم:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٣) / (٣) / (١٥١٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٤) / (٥٩٦).

شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾ .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال هذه الآيات: « قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

هنا يتجلى لنا مصداق حكمة الله في اصطفاء هذا الرجل . . إنه مقدم على معركة؛ ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة. وهو يواجه جيش أمة غالبية فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.

فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب . . واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات: عطاش؛ ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه، ويؤثر العافية . . وصحت فراسته:

﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده،

تبل الظماً ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن انفصلوا عن الجيش الزاحف، لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي؛ ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى. . . بل مضى في طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت - إلى حد - ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾

لقد صاروا قلة. وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذي يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته. إنها التجربة الحاسمة. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم؛ وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع إيمانهم، غير الموازين التي يستمدوها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة . الفئة القليلة المختارة . والفئة ذات الموازين

الربانية :

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

هكذا . . «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» . . بهذا التكثير . فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار . ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى ؛ ولأنها تمثل القوة الغالبة . قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، محطم الجبارين ، ومخزي الظالمين ، وقاهر المتكبرين .

وهم يكولون هذا النصر لله : «بإذن الله» . . ويعلمونه بعلته الحقيقية : «والله مع الصابرين» . . فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل . .

ونغضي مع القصة . فإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله ، التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله ، وتستمد يقينها كله من الثقة في الله ، وأنه مع الصابرين . . إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة ، الثابتة ، التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته ، مع ضعفها وقتها . . إذا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة . بعد أن تجدد عهدها مع الله ، وتتجه بقلوبها إليه ، وتطلب النصر منه وحده ، وهي تواجه الهول الرعب ^(١) اهـ .

(١) في ظلال القرآن (١/٢٦٨ ، ٢٦٩) .

ويعلق القرطبي رحمه الله تعالى على هذه القصة بقوله: « قوله تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ الفئة: الجماعة من الناس والقطعة منهم؛ من فأوت رأسه بالسيف وفأيته أي قطعته. وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ . . . الآية ﴾، تحريض على القتال واستشعاراً للصبر واقتداءً بمن صدق ربه.

قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام السير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا! وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مسند أن النبي ﷺ قال: « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»^(١).

فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد

(١) رواه البخاري كالجهد (٢٨٩٦) / (١٠٤/٦) بنحوه.

حتى استولى العدو شرقاً وغرباً برأ وبحراً، وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم^(١) . اهـ .

من خلال القصة السابقة يتبين دور العلماء الربانيين العالمين أن وعد الله حق والعاملين الصابرين الصادقين في نياتهم وعزائمهم، وأنهم هم الذين يثبتون في الشدائد والمحن وهم الذين ينزل عليهم نصر الله وتأيدته .

٢- الصدق في الأقوال :

«وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو ما يتضمن الإخبار وينبه عليه، والخبر إما أن يتعلق بالماضي فلا يخبر عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، أو بالمستقبل كالوفاء بالوعد والعهد»^(٢) .

وهذه المرتبة من الصدق هي التي يحصر كثير من الناس الصدق فيها ولا يتجاوزونها إلى غيرها، ولا شك أنها مرتبة عظيمة وتكميلها من أعز الأمور وأشقها على النفس، ولكنها يسيرة على من يسرها الله عليه وجاهد نفسه في تحقيقها . والصدق في الأقوال له صور عديدة منها :

أ- الصدق في نقل الأخبار :

فلا ينقل المسلم إلا الأخبار الصادقة وهذا بدوره يتطلب من الناقل التثبت فيما يقال واجتناب الظنون والأوهام والحذر من التحدث بكل ما يسمع . فمن حفظ لسانه من الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق في خبره، وهذا يقتضي الابتعاد عن الظنون والإشاعات، قال ﷺ :

(١) تفسير القرطبي (٣/٢٥٥) .

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٥٥٣) .

«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(١)، وقال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٢).

ب - الصدق في الوعد والوفاء به :

لأن إعطاء الوعد غالباً ما يكون بالقول فالوفاء بالوعد من الصدق في الأقوال وإخلافه يعد كذباً، إلا إذا كانت النية عند إعطاء الوعد صادقة ثم حال بينه وبين تنفيذ الوعد أمر خارج عن إرادته فإن هذا لا يعد إخفاقاً للوعد وبالتالي لا يعتبر كذباً.

والوعد قد يكون على مكان معين أو في زمن معين أو على أعطية أو زواج أو أي أمر آخر يعد به الرجل أخاه؛ فإن الإخلاف في هذه الأمور وأمثالها بدون مبرر شرعي يعتبر كذباً؛ يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مرم: ٥٤].

ج - الوفاء بالعقود والعهود :

وهذا أيضاً من الصدق في الأقوال. فإخلاف العهد والغدر فيه من أشد أنواع الكذب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن الوفاء بالعهود حفظ الأسرار وكتمانها. ولعل قوله ﷺ في التحذير من صفات المنافقين خير شاهد لما سبق ذكره؛ يقول ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق: إذا

(١) رواه البخاري كالأدب (٦٠٦٦)/فتح (٤٩٩/١٠)، ومسلم ك البر والصلة (٢٥٦٣)/ (٤/١٩٨٥).

(٢) رواه مسلم في المقدمة (٥) / (١٠/١).

حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»^(١).
 وقال ﷺ: « لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع
 الكذب والصدق جميعاً، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعاً »^(٢).



(١) البخاري ك الإيمان (٣٤)/فتح (١١١/١)، ومسلم ك الإيمان (٥٨)/(٧٨/١) واللفظ له.
 (٢) أحمد (٣٤٩/٢).

الصدق المذموم

وهنا مسألة تتعلق بالصدق في الأقوال ألا وهي: الأحوال التي يجوز فيها الكذب بل يجب أحياناً، ويكره عندها الصدق أو يحرم.

إن هذه المسألة تتعلق بتعارض المصالح والمفاسد؛ فالصدق ممدوح وواجب في أحوال وشتون المسلم كلها إلا أن يترتب على قول الصدق مفسد متحققة على أحد المقاصد التي جاءت الشريعة للمحافظة عليها (الدين، النفس، العقل، النسل، العرض، المال)، ففي هذه الحالة يقوم الصدق مقام الكذب في القبح والمعرة أو يزيد. ومن ذلك مايلي:

١- الغيبة :

فإن الكلام في أعراض الناس ولو كان بصدق محرم ومذموم كما جاءت الأحاديث بذلك.

٢- النميمة :

والسعاية ولو كان بشيء واقع صادق، والأحاديث في تحريم النميمة معروفة ومشهورة.

٣- في التأليف بين الزوجين والإصلاح بين الناس :

فإذا كان نقل الصدق سيترتب عليه إيغار الصدور وإثارة الشحناء فلا يجوز الصدق في ذلك بل يجوز الكذب تأليفاً للقلوب.

٤ - في الحروب مع الكفار والمكايذة لأعداء الدين :

فلا يجوز الإخبار بالصدق إذا كان سترتب عليه مفسد على الدين أو على المسلمين وديارهم فهنا يتعين الكذب .

عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « يا أيها الناس ، ما يحملكم على أن تتابعوا على الكذب كتتابع الفراش على النار . الكذب كله على ابن آدم إلا في ثلاث خصال : رجل كذب امرأته ليرضيها ، ورجل كذب في الحرب فإن الحرب خدعة ، ورجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما»^(١) .

وذكر صاحب قواعد الأحكام العز بن عبد السلام مسائل في هذا الباب فقال : « المثال الرابع والأربعون : الكذب مفسدة محرمة إلا أن يكون فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة فيجوز تارة ويجب أخرى وله أمثلة :

أحدها : أن يكذب لزوجته لإصلاحها وحسن عشرتها فيجوز ؛ لأن قبح الكذب الذي لا يضر ولا ينفع يسير ، فإذا تضمن مصلحة تربى على قبحه أبيع الإقدام عليه تحصيلاً لتلك المصلحة ، وكذلك الكذب للإصلاح بين الناس وهو أولى بالجواز لعموم مصلحته .

الثاني : أن يختبئ عنده معصوم من ظالم يريد قطع يده فيسأله عنه فيقول : ما رأيته ، فهذا الكذب أفضل من الصدق ، لوجوبه من جهة أن مصلحة حفظ العضو أعظم من مصلحة الصدق الذي لا يضر ولا ينفع ، فما الظن بالصدق الضار؟ وأولى من ذلك إذا اختبأ عنده معصوم ممن يريد قتله .

الثالث : أن يسأل الظالم القاصد لأخذ الوديعة المستودع عن الوديعة

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٠) .

فيجب عليه أن ينكرها، لأن حفظ الودائع واجب وإنكارها هاهنا حفظ لها ولو أخبره بها لضمنها، وإنكارها إحسان.

الرابع: أن تختبئ عنده امرأة أو غلام يقصدان بالفاحشة فيسأله القاصد عنهما فيجب عليه أن ينكرهما.

الخامس: أن يكره على الشرك الذي هو أقبح الكذب أو على نوع من أنواع الكفر فيجوز له أن يتلفظ به حفظاً لنفسه؛ لأن مفسدة لفظ الشرك من غير اعتقاد دون مفسدة فوات الأرواح.

والتحقيق في هذه الصور وأمثالها أن الكذب يصير مأذوناً فيه ويثاب على المصلحة التي تضمنها على قدر رتبة تلك المصلحة من الوجوب في حفظ الأموال والأبضاع والأرواح، ولو صدق في هذه المواطن لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفساد، وتتفاوت الرتب له ثم التسبب إلى المفساد بتفاوت رتب تلك المفساد.

المثال الخامس والأربعون من ترجيح المصالح على المفساد: الغيبة مفسدة محرمة لكنها جائزة إذا تضمنت مصلحة واجبة التحصيل أو جائزة التحصيل؛ ولها أحوال:

أحدها: أن يشاور في مصاهرة إنسان فذكره بما يكره، كما قال ﷺ لفاطمة بنت قيس لما خطبها أبو جهم ومعاوية: « إن أبا جهم ضراب للنساء، وإن معاوية صعلوك لا مال له »^(١)؛ فذكرهما بما يكرهانه نصحاً لها ودفعاً لضيق عيشها مع معاوية وتعريضاً لضرب أبي جهم، فهذا جائز. والذي

(١) متفق عليه.

يظهر لي أنه واجب لأمر رسول الله ﷺ بالنصح لكل مسلم»^(١) اهـ .

وقد ذكر صاحب الإحياء صورة مهمة لا يكمل الصدق في الأقوال إلا بها، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه فيما يناجي به العبد ربه من الألفاظ فيقول: «يراعي معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله تعالى: ﴿وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأمانى الدنيا وشهواتها فهو كذب . وكقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] .

وقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله، لعجز [عن] تحقيقه، فإنه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله . وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام: يا عبيد الدنيا! وقال نبينا ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، وعبد الحلة وعبد الخميصة»^(٢) ، فسمى كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له .

وإنما العبد الحق - لله عز وجل - من أعتق أولاً من غير الله تعالى فصار حراً مطلقاً، فإذا تقدّمت هذه الحرية صار القلب فارغاً فحلت فيه العبودية لله فتشغله بالله وبمحبهه وتقيده باطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى»^(٣) اهـ .

(١) قواعد الأحكام ص ٩٦ ، ٩٧ للعز بن عبد السلام .

(٢) البخاري بنحوه كالجهد (٢٨٨٧) / فتح (٩٥/٦) .

(٣) الإحياء (٥٩٤/٤) .

٣- الصدق في الأعمال :

وهو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة . وأن يجاهد العبد نفسه في أن تكون سريرته وعلانيته واحدة ، وأن لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف به حقيقة ، كمن يتظاهر بالخشوع في الظاهر والقلب ليس كذلك ، أو يتظاهر بالحرقة على الدين والغيرة على المحارم وهو في الباطن ليس كذلك . والصور كثيرة جداً منها صور الرياء المختلفة ، والقول باللسان ما ليس في القلب . وهذا لا يعني أن يترك المرء الأعمال الصالحة حتى يصلح باطنه ، كلا ، ولكن يجاهد نفسه في أن يستجرباً باطنه إلى تصديق ظاهره .

يقول صاحب الإحياء : « إن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد يفوت بها الصدق ، وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وقال معاوية بن قرة : من يدلني على بكاء في الليل بسأم في النهار»^(١) اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في شرحه لخطاب عمر رضي الله عنه المشهور في إعلام الموقعين :

«وأما قوله : «ومن تزين بما ليس فيه شأنه الله» لما كان المتزين بما ليس فيه ضد المخلص - فإنه يظهر للناس أمراً وهو في الباطن بخلافه - عامله الله بنقيض قصده ، فإن المعاقبة بنقيض القصد ثابتة شرعاً وقدرأً ، ولما كان المخلص يُعَجَّلُ له من ثواب إخلاصه الخلاوة والمحبة والمهابة في قلوب الناس

(١) الإحياء (٤/٥٩٨).

عَجَّلَ للمتزين بما ليس فيه من عقوبته أن شأنه اللهُ بين الناس ، لأنه شأن باطنه عند الله ، وهذا موجب أسماء الرب الحسنی وصفاته العليا وحكمته في قضائه وشرعه .

هذا ، ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنسك والعلم وغير ذلك قد نصَّب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلا بد أن تطلب منه ، فإذا لم توجد عنده افتضح ، فيشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه ، وأيضاً فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه ، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم ، جزاءً له من جنس عمله ، وكان بعض الصحابة يقول : أعود بالله من خشوع النفاق ، قالوا : وما خشوع النفاق؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب غير خاشع ، وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن»^(١) اهـ .

ومن الصدق في الأعمال :

حفظ الأمانة بمفهومها الواسع في الأموال والأولاد والودائع والأعراض وجميع الأوامر والنواهي . . إلخ ، كل هذا إذا صاحبه الإخلاص والتجرد لله عزوجل والمتابعة لرسوله ﷺ ، فصاحب العمل من الصادقين الأبرار ، ويدخل في ذلك الوفاء بجميع المعاملات مع الناس في البيع والشراء وتجنب الغش وحب الخير لهم . . . إلخ . كل هذا من الصدق في الأعمال . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] .

٤- الصدق في مقامات الدين :

قال صاحب الإحياء في هذه المرتبة :

(١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٠) .

«وهو أعلى الدرجات وأعزها؛ الصدقُ في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور. فإن هذه الأمور لها مباد ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، والصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقاً فيه، كما يقال: فلان صادق القتال. ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وسئل أبو ذرّ عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقليل له: سألناك عن الإيمان؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان فقرأ هذه الآية^(١).

ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره، حتى لا يتتفع به أهله وولده، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار، كل ذلك خوفاً من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند

(١) قال محقق الإحياء: رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة.

جريان معصية عليه، ولذلك قال ﷺ: « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل اللجنة نام طالبها »^(١). فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جداً ولا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقاً فيه^(٢) اهـ.



(١) الترمذي بنحوه ك (صفة جهنم) (٢٦٠٤) / (٧ / ٢٦٤).

(٢) الإحياء (٤ / ٥٩٨).

ذكر بعض الآيات الواردة في معنى الصدق وفضله

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

يقول الإمام ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون؛ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات»^(١) اهـ.

ويقول القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾: «وصفهم بالصدق والتقوى في أمورهم والوفاء بها، وأنهم كانوا جادين في الدين، وهذا غاية الثناء. والصدق خلاف الكذب. ويقال: صدقوهم القتال. والصديق: الملازم للصدق»^(٢) اهـ.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله عند تفسير هذه الآية

(١) تفسير ابن كثير آية ١٧٧ سورة البقرة.

(٢) تفسير القرطبي آية ١٧٧ سورة البقرة.

كلاماً طويلاً ومفيداً أنصح بالرجوع إليه في كتابه القيم «صفوة الآثار والمفاهيم». وأكتفي بما عقب به بعد تفسير هذه الآية الكريمة حيث يقول رحمه الله:

« فهذه الآية الكريمة - آية البر - جمعت بين الدين والسياسة في بدايتها ونهايتها، إذ اشتملت على أصول العقيدة وتكاليف النفس والمال، وركزت حقيقة منهج الله في الحياة، فقد ابتدأها الله بالسياسة العالمية وختمها بها: فأولها قوله: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ .

وقد أوضحنا حقيقة الإيمان بالله وأنه يستلزم عبادته الصحيحة المرضية له، وعبادته مبنية على الحب والتعظيم، ومحبته لا تتحقق إلا بحبة ما يحبه، والسعي لها يعني السعي لمحباته، وبغض ما يبغضه وعداوته والابتعاد عنه، وأن لا يوالي أحداً من أعدائه أو يسر إليهم بالموودة مهما كانت حالهم أو قرابتهم، ولا يعادي أحداً من أحباب الله لأي غرض نفسي أو طريقة سياسية، بل ولا يتخلى عن أهل الله الذين هم أهل ملته، وإن ابتلوا بحكام يحدون عن سبيل الله، فليعامل الشعوب معاملة دينية مرضية لله.

فعبادة الله التي هي نتيجة الإيمان ليست مقصورة على إقامة شيء من الشعائر الدينية أو جميعها، بل هي شاملة لجميع نظام الحياة، لا يستقيم حب الله وتعظيمه إلا برعايتها حق الرعاية. فتعظيم الله لا يتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه في كل ناحية من شؤون الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يحصل الإخلال بذلك إلا بمن ضعف إيمانه لنقص حبه لله وتعظيمه، أو من جاهل لا يعرف معنى عبادة الله، بل تسيره شياطين الجن والإنس، وتعصف بعقله أهازيج الدجاجة.

ومن اعتقد قصر عبادة الله أو حصرها على الشعائر التعبدية فقط كما يريده العصريون من قصر الدين على المساجد ونحوها، فهذا من أجهل الناس باللغة العربية، فضلاً عن المدلولات الشرعية، ومن أجهل الناس بمعاني الألوهية وحقيقة الإيمان بها، فيكون جميع الكفار من أقوام الرسل الذين أولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ أعلم منه بمعنى دعوتهم: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

ومن لوازم الإيمان بالله جعل الحاكمية لله وحده، فلا يحتكم إلى غير شريعته، لا في الأمور السياسية ولا الاقتصادية ولا الاجتماعية، لأن من احتكم إلى غير الله في شيء من هذه الشؤون كان رافضاً لألوهية الله أو ملحداً في أسمائه، كالذي يزعم التطور فيبيح ما أحل الله أو يحرم ما أباحه بهذا المزعم الخبيث، أو يسقط حدود الله باسم الإنسانية، زاعماً أن حدود الله قاسية لا تناسب العصر.

فهذا وذاك قد أهدوا في أسمائه، فلم يعتبروه عليمًا ولا خبيراً ولا محيطاً ولا حكيمًا ولا رحماناً ولا رحيمًا. وكذلك من يزعم أن سمة العصر أو متطلباته لا يناسبها دين الله ولا شرعه، وأنهما لا يصلحان للعصر الصناعي المتطور في العلم والحضارة.

وكذلك من يجعل لنفسه الخيرة في سلوك ما يشاؤه من أنواع الحكم والعلاقات الداخلية والخارجية، فإن هذا منازع لله في سلطانه، بعيد عن الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، فهكذا ابتداءً الله الآية بما هو من لباب السياسة التي يوجب على عباده سلوكها في الحياة إيجاباً قطعياً لا يجوز لهم تخطيه، فلا يكون لهم قصد ولا غاية سواه، ولا يكون لهم

نقطة ارتكاز يتجمعون حولها سوى دين الله، فهو المبدأ الذي يتجمعون عليه، ويقاتلون من أجله، ويعيشون من أجله، ويموتون في سبيله، ويتجمع حولهم الوجود كله إذا أخلصوا المقاصد وأصلحوا الأعمال، وأنه لا يجوز أن يكون لهم هدف سوى دين الله وطاعته، فلم يخلقهم الله سدى وهملاً، يعملون ما يريدون، وأن من خرج عن هذا فليس من الإيمان في شيء وسياسته سياسة شيطانية، يتعثر بها، ويشقى بها تابعوه.

ثم ثنى الله في هذه الآية بتكاليف النفس والمال من إيتاء المال حالة حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المفروضة زيادة على ذلك، كما أوضحناه سابقاً.

فإن الجمع بين إيتاء الزكاة وبين دفع المال على حبه لتلك الجهات، مما يحقق الإنسانية ويضمن كرامتها ويرفعها عن البؤس، ويحفظها من شرور الحقد.

وإقامة الصلاة في الإسلام مظهر لنشاط الإنسان في قواه الثلاثة: جسمه وعقله وروحه، بتوجهها إلى الله جميعاً في ترابط واتحاد، فقيامه وعوده وركوعه وسجوده تحقيق لنشاط الجسد، وتكبيراته بتفهم، وقراءته بتدبر وتفكير في معانيها ومبانيها، يتحقق به نشاط العقل، وتوجهه واستسلامه لله يتحقق به نشاط الروح كلها في وقت واحد، ففيها تعريف للمصلي بفكرة الإسلام كلها عن الحياة واتجاهها بجميع طاقاتها لله وحده في كل الشؤون.

ثم ختم الله الآية أيضاً بالسياسة العالمية المتضمنة للوفاء الصحيح بالعهد الذي لا يراه أهل الجاهلية قديماً ولا حديثاً ولا يتمسكون به إلا وفق أهوائهم ومصالحهم، وقد كرره القرآن كما أسلفنا وجعله من الإيمان، لأنه يحصل به

إيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد والجماعات والدول والأمم.

ثم الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وهو من صميم السياسة الإنسانية في الجهاد النفسي الداخلي والجهاد الخارجي، وفيه تربية وإعداد للنفوس، كي لا تذهب حسرات مع أي فاجعة ولا تنهار جزعاً في أي نازلة، بل تتابر على الصبر والمصابرة، ثقة بالله وانتظاراً لفرجه، حتى يحصل انجلاء الغمة ويتبدل العسر إلى يسر بإذن الله ورحمته وفضله، وبذلك قوة ورباطة جأش للنفوس وسلامة من الهزيمة الحسية أو المعنوية.

فيالها من آية جمعت أصول الحياة الطيبة السعيدة، وجعلتها كلها جزءاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم عراها، وطبعتها بعنوان واحد هو (البر).

ولا شك أن هذه الآية خلاصة لمبادئ الإسلام الضرورية التي لا غنى للمسلمين عنها في دينهم ودنياهم والتي يتحقق بتطبيقها صدقهم مع الله وتقواهم له، ولذلك ختمها الله بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يعني صدقوا مع الله ومع خلقه في مطابقة أفعالهم لأقوالهم وفي الترجمة عما في قلوبهم من الإيمان أو مايزعمونه من دعوى الإيمان، فإن الإيمان ليس بالدعوى بل بالأعمال التي تبرهن عما في القلب، وهم المتقون الذين أخذوا لأنفسهم وقاية من الله بامثال أوامره.

فالمتقون هم الذين اتقوا مساخط الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأخذوا لأنفسهم وقاية من عذابه. وفي إتيان الله بضمير الفصل بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ حصر للصدق والتقوى على أهل هذه الأوصاف. كما أن تكرير الله لهذه الواووات في الأوصاف بهذه الآية لاعتبار الجمع. فمن

شرائط البر وتمامها أن تجتمع هذه الأوصاف في المؤمن البار ليكون من الصادقين المتقين؛ ومن أتى ببعضها دون بعض لم يستحق هذا المقام إلا عند اجتماعها، فلا يظن الإنسان أنه إذا صبر حين البأس أو في الضراء والبأساء يكون منهم، ولا المقتصر على الإنفاق أو على مجرد الإيمان أو مجرد الوفاء بعهد المخلوقين السياسي؛ فإنه لا يكون منهم، ولكن الموفي بعهد الله الكلي في معاملته لله معاملة المحب لحبيبه في جميع شؤون الحياة بتطبيق جميع أوامر الشريعة وتنفيذ جميع شعب الإيمان التي منها مضمون هذه الآية، فهذا يكون من أهل البر الصادقين المتقين - جعلنا الله منهم أجمعين^(١) . اهـ .

الآية الثانية :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

[التوبة: ١١٩]

ومن هذه الآية أخذت عنوان هذه الدراسة . وقد جاء هذه التوجيه الرباني في أعقاب قصة الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم بسبب صدقهم فيما اعتذروا به ، وعدم كونهم مع المنافقين الذين كذبوا على الله ورسوله . يقول كعب بن مالك رضي الله عنه (وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا) : «وقلت : يا رسول الله ، إنما أنجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي إلا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً ، وإنني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي ، وأنزل الله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

(١) صفوة الآثار والمفاهيم «سورة البقرة آية ١٧٧» .

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ - إلى قوله - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿ [التوبة: ١١٧-١١٩] ،
 فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي
 من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ألا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين
 كذبوه ، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد - فقال :
 ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ
 رَجْسٌ - إلى قوله - الْفَاسِقِينَ ﴿ [التوبة: ٩٥ ، ٩٦] » ^(١) .

يقول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : « فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل
 الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل
 المنافقين .

قال مطرف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقاً لا
 يكذب إلا متّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ فقيل : هو
 خطاب لمن آمن من أهل الكتاب . وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أي
 اتقوا مخالفة أمر الله . ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي مع الذين خرجوا مع
 النبي ﷺ لا مع المنافقين . أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم . وقيل :
 هم الأنبياء ؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة . وقيل : هم المراد
 بقوله : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ - الآية إلى قوله - أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . وقيل : هم الموفون بما عاهدوا ؛ وذلك لقوله تعالى :

(١) البخاري ك المغازي (٤٤١٨) / فتح (٧/٧١٧) ، ومسلم ك التوبة (٢٧٦٩) (٤/٢١٢٠) .

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ . وقيل : هم المهاجرون ؛ لقول أبي بكر يوم السَّقِيفَةِ ؛ إن الله سَمَّانا الصادقين فقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ الآية ، ثم سماكم بالمفلحين فقال : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الآية . وقيل : هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم .

قال ابن العربي : وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى ؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفة في الفعل ، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومن دونهم على منازلهم وأزمانهم . وأما من قال : إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب . وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعم الأقوال كلها ؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة .

الثانية : حقَّ مَنْ فهم عن الله وعقل عنه أن يلزم الصّدق في الأقوال ، والإخلاص في الأعمال ، والصفاء في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار ؛ قال ﷺ : «عليكم بالصدّق فإن الصدّق يَهْدِي إلى البر ، وإن البر يَهْدِي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدّق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١) . والكذب على الضد من ذلك»^(٢) . اهـ .

ويشير صاحب الظلال إلى جانب من جوانب الصدق في هذه الآية ويربطها بالآيات التي بعدها فيقول رحمه الله تعالى :

«وفي ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا؛ وفي ظل

(١) سبق تخريجه .

(٢) تفسير القرطبي الآية (١١٩) من سورة البقرة .

عنصر الصدق البادي في قصة الثلاثة الذين خلفوا؛ يجيء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة؛ ويجيء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، مع الوعد بالجزاء السخي للمجاهدين:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[التوبة: ١١٩-١٢١]

إن أهل المدينة هم الذين تبنا هذه الدعوة وهذه الحركة، فهم أهلها الأقربون. وهم بها ولها. وهم الذين آووا رسول الله - ﷺ - وبايعوه؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع الجزيرة كله. وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة. . فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه.

وحين يخرج رسول الله - ﷺ - في الحر أو البرد. في الشدة أو الرخاء. في اليسر أو العسر. ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها، فإنه لا يحق لأهل المدينة، أصحاب الدعوة، ومن حولهم من الأعراب، وهم قرييون من شخص رسول الله - ﷺ - ولا عذر لهم في ألا يكونوا قد علموا - أن يشفقوا

على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ .

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين، الذين لم يتخلفوا، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف، ولم يتزلزل إيمانهم في العسرة ولم يتزعزع . . وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان»^(١) اهـ.

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصَدَقَتِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

[الأحزاب: ٢٣، ٢٤]

ورد في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في أنس بن النضر رضي الله عنه والذي ضرب أروع الأمثلة في الصدق والوفاء، ويكفي في إيراد هذا السبب تفسيراً وتعليقاً على هذه الآية الكريمة:

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال: «قال عمِّي أنس بن النضر - سُمِّيت به - ولم يشهد بدمراً مع رسول الله ﷺ فكبر عليه فقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها؛ فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واهما لريح الجنة! أجدها دون أحد؛ فقاتل حتى قُتل، فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت عمِّي

(١) في ظلال القرآن «سورة التوبة آية ١١٩» .

الرَّبِيعُ بِنْتُ النَّضْرِ: فما عرفت أخي إلا ببَنَانِهِ. ونزلت هذه الآية ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(١). هذا لفظ الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

[محمد: ٢١]

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

« ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة في صدقه في عزمه وفي فعله: قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم: فإذا صدقت عزمته بقي عليه صدق الفعل وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه وألا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور.

ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتزم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»^(٢) اهـ.

(١) البخاري كالمغازي (٤٠٤٨) / فتح (٤١١/٧) بنحوه، ومسلم كالإمارة (١٩٠٣)

/ (٣/١٥١٢)، والترمذي كالتفسير (٣١٩٨) / (٣٤١/٨).

(٢) الفوائد ص ١٨٦.

الآية الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ .

[الحجرات : ١٥]

يقول سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية :

« فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله .

فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد من دافع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . وفي واقع الحياة . وفي دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة .

ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس .

والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني ، وواقعه العملي . وعدم

استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنشي هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ . . الصادقون في عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون .

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ . . إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم في النفس . حتى بعد إيمانها . .

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ وشبيه بها الاحتراس في قوله تعالى : ﴿إِن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ . . ثُمَّ اسْتَقَامُوا . .﴾ فعدم الارتياب ، والاستقامة على قوله : «ربنا الله» تشير إلى ما قد يعتري النفس المؤمنة - تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة - من ارتياب ومن اضطراب . وإن النفس المؤمنة لتضطدم في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار

الرحلة، لتعزم أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهم الأفق،
ويظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح!«^(١) اهـ.

والآيات في معنى الصدق وفضله كثيرة جداً نكتفي بما تم إirاده فيما
سبق، والله نسأل أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.



(١) في ظلال القرآن آية ١٥ الحجرات.

ذكر الأحاديث والآثار الواردة في معنى الصدق وفضله

الحديث الأول :

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فقه الحديث :

أفاد الحديث الترغيب في الصدق لأنه سبب كل خير وتقى، وأن من تكرر منه الصدق حتى صار له سجية وخلقاً في جميع أحواله فهو الصديق الذي له ثواب الصديقين، كما أفاد التحذير من الكذب لأنه سبب كل شر وأن تكراره من الإنسان يصيره خلقاً وسجية حتى يكتب عند الله من الكاذبين. كما أفاد الحديث عاقبة الصدق وهي الجنة، وعاقبة الكذب وهي النار.

الحديث الثاني :

عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ؛ فَإِنَّ الصَّدْقَ

(١) البخاري كالأدب (٦٠٩٤) / فتح (٥٢٣/١٠)، مسلم ك البر (٢٦٠٧) / (٤/٢٠١٢).

طُمَآنِينَةٌ، وَالْكَذِبَ رِيْبَةً»^(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ. قَوْلُهُ «يَرِيْبُكَ» هُوَ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا: وَمَعْنَاهُ أَتْرَكَ مَا تَشْكُ فِي حِلِّهِ وَأَعْدَلَ إِلَيَّ مَا لَا تَشْكُ فِيهِ.

فقه الحديث :

إن الصدق يبعث في النفس الطمأنينة والثقة والثبات والاستقرار وهذه ثمرة من ثمرات الصدق، وعكسه الكذب الذي لا يورث إلا الريبة والشك والقلق والاضطراب وعدم الثقة بين الناس.

الحديث الثالث :

عَنْ أَبِي خَالِدٍ حَكِيمِ بْنِ حَزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَّتْ بَرَكَةٌ بَيْعِهِمَا»^(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

فقه الحديث :

أفاد الحديث فضيلة الصدق في المعاملة وأنه سبب في نماء المال وبركته وزكاته بخلاف الكذب والغش والكتمان التي تؤدي إلى محق البركة ونقص النماء، كما يستفاد من الحديث بصفة عامة ثمرة الصدق في كل أنواع التعاملات. ويدخل في ذلك الصدق مع الله عز وجل وأنه سبب قبول الأعمال وبركتها.

(١) الترمذي كصفة القيامة (٢٥٢٠)/(٧/٢٠٥)، أحمد (١/٢٠٠). وقال الترمذي: صحيح، وصححه الألباني [صحيح الترمذي ٢٠٤٥].

(٢) البخاري كالبیوع (٢٠٧٩)/فتح (٤/٣٦٢)، ومواضع أخرى، مسلم كالبیوع (١٥٣٢)/(٣/١١٦٤).

الحديث الرابع :

عَنْ أَبِي ثَابِتٍ، وَقِيلَ أَبِي سَعِيدٍ، وَقِيلَ أَبِي الْوَلِيدِ، سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَهُوَ بَدْرِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ »^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فقه الحديث :

أفاد الحديث ثمرة النية الصادقة، وأن من نوى شيئاً من أعمال البر أثابه الله عليه ولو قصرت النية عن العمل . والنية الصادقة هي التي لا يشوبها عرض من أعراض الدنيا ولم يصبها التردد والضعف في العزيمة على الوفاء بها . ومثل هذا الحديث ما رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من طلب الشهادة صادقاً أعطيتها ولو لم تصبه »^(٢) .

ومثل هذا الحديث الحديث التالي :

الحديث الخامس :

عن سعيد الطائي أبي البخري أنه قال: حدثني أبو كبشة الأثمري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« ثَلَاثٌ أَقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأَحَدُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ . قَالَ : مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلَا ظَلَمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا ، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - وَأَحَدُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ . فَقَالَ : إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا

(١) مسلم ك الإمارة (١٩٠٩) / (٣) / (١٥١٧).

(٢) مسلم ك الإمارة (١٩٠٨) / (٣) / (١٥١٧).

وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي رَبَّهُ فِيهِ وَيَصِلُ بِهِ رَحْمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ
الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ
لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ
مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ
رَحْمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهُوَ بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا
وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنِيَّتِهِ
فَوَزَّرُهُمَا سَوَاءً»^(١).

الحديث السادس :

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ
مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَّوْا إِلَى غَارٍ فَانطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصَّدَقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا
يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي
أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرْقٍ مِنْ أُرْزُ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَإِنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ
الْفَرْقِ فزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقْرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ
أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرْقٌ
مِنْ أُرْزُ. فَقُلْتُ لَهُ: اعْمَدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ، فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرْقِ. فَسَاقَهَا. فَإِنْ
كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا. فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ
الصَّخْرَةُ. فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبْوَانٌ شَيْخَانِ
كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ أَتَيْتُهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ يَلْبَنُ غَنَمِي لِي، فَأَبْطَأَتْ عَنْهُمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ

(١) الترمذي ك الزهد (٢٣٢٦) / (١٨/٧)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه مختصر أك
الزهد (٤٢٢٨) / (١٤١٣/٢). و صححه الألباني.

وقد رقدا؛ وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا. فانساخت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتى قدرت فأتيها بها فدفعتها إليها، فأمكننتني من نفسها، فلما قعدت بين رجلها فقالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقامت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا»^(١).

فقه الحديث :

فضل الصدق وأثره في النجاة من الشدائد والكربات، وأن المؤمن لا يذكر حينئذ من أعماله إلا ما كان صادقاً، وهو الذي يبقى ثوابه عند الله عز وجل.

الحديث السابع :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وحسن خليقة، وصدق حديث، وعفة في مطعم»^(٢).

(١) البخاري ك أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣).

(٢) أحمد (١٧٧/٢)، وصححه الألباني / الصحيحة (٧٣٣).

أن من حاز على هذه الفضائل فقد حاز على الخير كله، وذلك لما في هذه الفضائل من خيري الدنيا والآخرة، ولو تأملنا في كل هذه الفضائل لرأيناها تنبع من الصدق بمفهومه الواسع لأن الصدق مع الله عز وجل والصدق مع خلقه يقتضي هذه الفضائل وغيرها.



مواقف صادقة

وفي هذه الفقرة نستعرض بعض المواقف الصادقة التي أثمرها الصدق مع الله عزوجل والصدق مع دينه سبحانه، وهي على سبيل المثال لا الحصر وإلا فمواقف أنبياء الله عزوجل والتابعين لهم بإحسان كلها مواقف صدق وإخلاص وتضحية، نسأل الله سبحانه أن يحشرنا في زمرةهم وإن قصرت أعمالنا وعزائمنا عنهم قصوراً شديداً شديداً، و«المرء مع من أحب» إن كان صادقاً في حبه لهم.

صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه :

إنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه والذي اتسمت حياته كلها بالصدق والإخلاص والتضحية والبذل والمحبة الصادقة لله عزوجل ولنبيه محمد ﷺ ، ومن أجل ذلك استحق هذا اللقب الشريف من رسول الله ﷺ والذي سبق به غيره من المؤمنين، ومن أجل ذلك فاق إيمانه إيمان الأمة، وبه فضل على الناس جميعاً سوى الأنبياء.

ولا يعني هذا أن ليس في الأمة صديق إلا أبو بكر رضي الله عنه، كلا، بل الصديقون في هذه الأمة كثير، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ولكن أبو بكر رضي الله عنه قد حاز الكمال في الصديقية، وكل من وصل إلى رتبة الصديقية فهو دون أبي بكر عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

مثال في صدق العزائم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعَنِي رَجُلٌ مَلَكَ بَضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمَّا بَيْنَ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى يُّوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا آخَرَ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلْفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا. فَعَزَا فِدْنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحَبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ فَجَاءَتْ - يَعْنِي النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمَهَا، فَقَالَ: إِنْ فِيكُمْ غُلُولًا فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ؛ فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتِكَ، فَلَزَقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ بِيَدِهِ فَقَالَ: فِيكُمْ الْغُلُولُ. فَجَاءُوا بِرَأْسِ بَقْرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ؛ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزْنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا»^(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

«الْخَلْفَاتُ» بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ وَكَسْرِ اللَّامِ: جَمْعُ خَلْفَةٍ وَهِيَ النَّاقَةُ الْحَامِلُ.

أمثلة في الصدق مع الله عزوجل في الجهاد والوفاء بالعهد :

أ- قد مضت قصة أنس بن النضر في غزوة أحد وما نزل فيه من القرآن في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ... الآية﴾ فليرجع إليها في الآيات الواردة في فضيلة الصدق .

ب- عن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ

(١) البخاري ك الخمس (٣١٢٤)/فتح (٦/٢٥٤)، مسلم ك الجهاد (١٧٤٧)/(٣/١٣٦٦).

فأمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة غنم النبي ﷺ سبياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسم لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال ما هذا؟ قال: «قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمى إلى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال: «إن تصدق الله يصدقك». فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: «أهو هو؟»، قالوا: نعم، قال: «صدق الله فصدقته»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبهته ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك»^(١).

وفي هذه القصة فضل احتساب جميع الأجر من الله في الآخرة والعزوف عن كل عرض دنيوي يأتي من وراء الدعوة والجهاد.

ج - البكاؤون: وهم الذين جاءوا إلى النبي ﷺ ليحملهم معه في غزوة تبوك فاعتذر منهم بعدم الكفاية في الظهر، فانصرفوا باكين لا لفوات دنيا ولكن لتخلفهم عن رسول الله ﷺ في الجهاد معه والفوز بالثواب والأجر العظيم، فقال تعالى عاذراً لهم: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

(١) النسائي ك الجنائز الصلاة على الشهداء (٤/٦٠).

د - ومن ترجمة وائلة بن الأسقع رضي الله عنه : عن محمد بن سعد قال : « أتى وائلة رسول الله ﷺ فصلى معه الصبح . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى وانصرف تصفح أصحابه . فلما دنا من وائلة قال : من أنت ؟ فأخبره فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت أبايع . فقال رسول الله ﷺ : فيما أحببت وكرهت ؟ قال : نعم . قال : فيما أطقت ؟ قال : نعم . فأسلم وبايعه .

وكان رسول الله ﷺ يتجهز يومئذ إلى تبوك فخرج وائلة إلى أهله فلقي أباه الأسقع فلما رأى حاله قال : قد فعلتها ؟ قال نعم . قال أبوه : والله لا أكلمك أبداً . فأتى عمه فسلم عليه فقال : قد فعلتها ؟ قال : نعم . قال : فلامه أيسر من ملامة أبيه وقال : لم يكن ينبغي لك أن تسبقنا بأمر . فسمعت أخت وائلة كلامه فخرجت إليه وسلمت عليه بتحية الإسلام . فقال وائلة : أنى لك هذا يا أختي ؟ قالت : سمعت كلامك وكلام عمك فأسلمت . فقال : جهّزي أحاك جهاز غاز فإن رسول الله ﷺ على جناح سفر . فجهزته فلحق برسول الله ﷺ قد تحمّل إلى تبوك وبقي غيبرات من الناس وهم على الشخوص فجعل ينادي بسوق بني قينقاع : من يحملني وله سهمي ؟ قال : وكنت رجلاً لا رُحلة بي . قال : فدعاني كعب بن عجرة فقال : أنا أحملك عقبة بالليل وعقبة بالنهار ويدك أسوة يدي وسهمك لي . فقال وائلة : نعم . قال وائلة : جزاه الله خيراً لقد كان يحملني ويزيدني وأكل معه ويرفع لي ، حتى إذا بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل خرج كعب في جيش خالد وخرجت معه فأصبنا فيئاً كثيراً فقسمه خالد بيننا فأصابني ست قلائص ، فأقبلت أسوقها حتى جئت بها خيمة كعب

بن عجرة فقلت: اخرج رحمك الله فانظر إلى قلائصك فاقبضها، فخرج وهو يبتسم ويقول: بارك الله لك فيها ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئاً»^(١).

هـ - وقال محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: «كنت مع ابن المبارك، ومُعتمر بن سليمان بطرسوس، فصاح الناس: النفير، فخرج ابن المبارك والناس، فلما اصطفَّ الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجلٌ، فشدَّ العليج عليه فقتله، حتى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إليَّ ابن المبارك، فقال: يا فلان، إن قُتلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرَّك دابته، وبرز للعليج، فعالج معه ساعة، فقتل العليج، وطلب المبارزة، فبرز له عليج آخر فقتله حتى قتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرده بين الصفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله لئن حدثت بهذا أحداً، وأنا حيٌّ، فذكر كلمة»^(٢).

و - وعن عبد الله بن قيس، أبي أمية الغفاري قال: «كنا في غزاة لنا فحضر عدوهم، فصيح في الناس، فهم يثوبون إلى مصافهم، إذا رجل أمامي، رأس فرسي عند عجز فرسه، وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفس ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي: أهلك وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت: أهلك وعيالك، فأطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله، أخذك أو تركك. فقلت: لأرْمُقَنَّه اليوم. فرمقته

(١) صفة الصفوة (١/٦٧٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٨).

فحمل الناسُ على عدوّهم فكان في أوائلهم . ثم إن العدوَّ حمل على الناس فانكشفوا فكان في حُماتهم ، ثم إن الناس حملوا فكان في أوائلهم ، ثم حمل العدوَّ وانكشف الناس فكان في حُماتهم . قال : فوالله ما زال ذلك دأبه حتّى رأيتَه صريعاً . فعددتُ به وبدابته ستّين ، أو أكثر من ستّين ، طعنةً^(١) .

أمثلة في الصدق مع الخلق :

أ- عن الفريابي : حدثني أبو بكر سعيد بن يعقوب الطالقاني ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن هارون بن رثاب ، أن عبد الله بن عمرو لما حضرته الوفاة قال : «انظروا فلاناً - لرجل من قريش - فإنني كنت قلت له في ابنتي قولاً كشبيه العدة ، وما أحبُّ أن ألقى الله تعالى بثُلثُ النفاق ، وأشهدكم أنني قد زوجته»^(٢) .

ب- عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم»^(٣) . وزاد ابن حبان : «فكان جرير بن عبد الله إذا بايع أحداً قال : اعلم يا أخي أن ما أخذنا منك خير مما أعطيناك فاختر» . كل هذا من النصح والصدق للمسلم والصدق مع الناس .

(١) صفة الصفوة (٤/٤٢١) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٣٩٦) .

(٣) البخاري ك الإيمان (٥٧) / فتح (١/١٦٦) ، ومواضع أخرى ، ومسلم ك الإيمان (٥٦) /

(١/٧٥) .

مثال في الصدق مع النفس :

عن جعفر بن برقان قال: «بلغني عن يونس بن عبيد فضلٌ وصلاحٌ فكتبت إليه: يا أخي بلغني عنك فضلٌ وصلاحٌ فأحبيت أن أكتب إليك، فاكتب إليّ بما أنت عليه. فكتب إليّ: أتاني كتابك تسألني أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أنني عرضت على نفسي أن تحبّ للناس ما تحب لها وأن تكره لهم ما تكره لها؛ فإذا هي من ذلك بعيد، ثم عرضت عليها مرةً أخرى ترك ذكرهم إلا من خير؛ فوجدت الصوم في اليوم الحار الشديد الحر بالهواجر بالبصرة أيسر عليها من ترك ذكرهم، هذا أمري يا أخي والسلام»^(١).

مثال في الصدق في قول كلمة الحق :

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «أقام جوهر القائد^(٢) لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهماً، وفينا تسعة، قال: ما قلتُ هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهماً، وفينا تسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضاً، فإنكم غيرتم الملة، وقتلتم الصالحين، وادّعيتم نور الإلهية، فشهره ثم ضربته، ثم أمر يهودياً فسلكه».

وقال الذهبي في ترجمته لأبي بكر النابلسي: «قال أبو ذرّ الحافظ: سجنه بنو عبيد، وصلبوه على السنة، سمعت الدارقطني يذكره، ويبيكي، ويقول: كان يقول وهو يسأل: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]»^(٣).

(١) صفوة الصفوة (٣/٣٠٣).

(٢) هو أحد قادة دولة بني عبيد الباطنية في مصر.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/١٤٨).

مثالان في الصدق مع الله عزوجل في الثبات على الإيمان والصبر على

البلاء :

أ - قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام :

وفي هذه القصة من الصدق والإيمان الحق الشيء العظيم، فإن شئت رأيت ذلك في الراهب الذي قطع بالمنشار ليرجع عن دينه فلم يرجع، وإن شئت رأيت ذلك في جليس الملك الذي فعل به ما فعل بالراهب، وإن شئت وجدت ذلك في الغلام الذي هُدد بجميع أصناف القتل فاستعلى على ذلك وأنجاه الله، حتى إذا رأى أن في قتله إيمان الناس من حوله فتح ذراعيه للقتل باذلاً نفسه لربه عزوجل، وإن شئت وجدت ذلك الصدق العظيم في المؤمنين الذين حرقوا بالنار ليرجعوا عن دينهم فاستعلوا على ذواتهم وعلى الحياة بأسرها وأقدموا على النيران المتأججة ليسقطوا فيها فداءً لدينهم وشراءً لرضوان الله عزوجل وجنته.

والقصة طويلة أوردتها الإمام مسلم في الحديث (٣٠٠٥) في كتاب الزهد والرفائق، نقتطع الشاهد منها، وذلك من قوله ﷺ: «فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَدَعَا بِالْمَنْشَارِ. فَوَضَعَ الْمَنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ. ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَوَضَعَ الْمَنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ. فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ. ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إِلَيَّ نَفْرًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا. فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا. وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قَرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ. فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَأَقْدِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا. وَجَاءَ يَمِينِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ. وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِدْعٍ. ثُمَّ خُذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي. ثُمَّ ضَعَّ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ. ثُمَّ قُلَّ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ أَرَمَنِي؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِدْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ. فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ؛ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالْأَخْذِ فِي أَقْوَاهِ السُّكَّكَ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النَّيْرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمِ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا؛ فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهُ اصْبِرِي، فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ^(١).

ب - ماشطة ابنة فرعون:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الرسول # قال: «لما كانت الليلة التي أسري بي فيها وجدت رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟

(١) مسلم ك الزهد (٣٠٠٥) / (٤/٢٢٩٩).

قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها قلت : ما شأنها ؟ قال : بينما هي تمشط بنت فرعون ذات يوم إذ سقطت المدري من يدها، فقالت : بسم الله، قالت بنت فرعون : أبي؟ فقالت : لا ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت : أخبره بذلك؟ قالت : نعم، فأخبرته فدعاها، وقال : يا فلانة وإن لك رباً غيري؟! قالت : نعم ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له : إن لي إليك حاجة، قال : وما حاجتك؟ قالت : أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، قال : ذلك لك علينا من الحق، قال : فأمر بأولادها فألقوا بين يديها واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مريض وكانها تقاعست من أجله، قال : يا أمه اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت»^(١) .

(١) أحمد (٣٠٩/١) وصححه أحمد شاكر (٢٨٢٢) (٤/٢٩٥).

من علامات الصدق

إن للصدق علامات ومظاهر تنفي ضدها، وإذا لم توجد أو كانت ضعيفة فإن ذلك دليل على ضعف الصدق وتسلط العوائق عليه. ومن هذه العلامات ما يلي:

١ - طمأنينة القلب واستقراره :

إن الصدق في جميع الأحوال - باطنها وظاهرها - يورث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه. وقد مر بنا في الأحاديث السابقة قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»، فإذا وجدنا الطمأنينة وعدم الريبة فإن هذا علامة على وجود الصدق إن شاء الله تعالى.

ومن علامات هذه الطمأنينة الثبات في المواقف التي يختبر فيها الإيمان، والصبر على البلاء، والتسليم لله عز وجل. يقول الله تعالى في الثناء على أهل الصدق يوم الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة يصف الله سبحانه أهل الكذب والريبة والنفاق في يوم الأحزاب، فيقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ . . . الْآيَةَ﴾ [الأحزاب: ١٩]،

وهذه الحالة من الخوف والاضطراب إنما نشأت من الكذب والنفاق والريبة التي أفرزت انزعاج القلب وتقلبه وعدم استقراره .

وقد مر بنا في المواقف الصادقة قصة أصحاب الأخدود و غلامهم وغيرهم حيث ثبتوا على الأهوال والشدائد وباعوا أنفسهم لله عزوجل ، وليس ذلك إلا من الإيمان الحق والصدق العظيم الذي أورث طمأنينة القلب وشجاعته ، وهكذا يفعل الصدق بالقلوب . وينقل ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً لشيخ الإسلام حول هذا المعنى نقتطف منه مايلي :

«قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠] ، فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش وصاحب اليقين ثابت . يقال : أيقن إذا كان مستقراً ، واليقين استقرار الإيمان في القلب علماً وعملاً ؛ فقد يكون علم العبد جيداً ، لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش . قال الحسن البصري : إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبراً له رأيتك ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيتك ، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]»^(١) .

٢ - الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل :

ومن علامة طمأنينة القلب - النابعة عن الصدق - انشراحه وزهده في الدنيا والتأهب للآخرة قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، لما نزلت هذه الآية سئل الرسول ﷺ عن شرح الصدر فقال :

(١) الفوائد ص ٢١٢ .

«نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح»، قيل: وهل لذلك أمانة، قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١).

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في طريق الهجرتين كلاماً بديعاً حول حقيقة الاستعداد للقاء الله عزوجل وعلامة الصدق في ذلك فقال: «(فصل) صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته، فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله وعلى محبته وإيثار مرضاته.

إلى أن يقول: والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الإيمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين إليه، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه.

ثم يقول رحمه الله تعالى: وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿وَمَنْ

(١) هذا الحديث قواه ابن كثير في التفسير لتعدد طرقه (٢/١٧٦). وتعقبه الشيخ محمود محمد

شاکر في تفسير الطبري - ط دار المعارف - ٩٨/١٢ - ٩٩ (١٣٨٥٢).

يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴿ [النساء: ١٠٠] ، وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو مريض طالب للقرآن أنه رئي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه تعلم في البرزخ ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه .

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لماله ، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر . ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة ، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره . ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي ، كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات ، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه .

ومن الناس من يكون طريقه الصوم ، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله .

ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده . ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد فتح الله [له] فيه ونفذ منه إلى ربه . ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتماد .

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة .

ومنهم جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل

طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبله قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن، قد سلمت إليه المبيع منتظراً منه تسليم الثمن»^(١) اهـ.

مما سبق يتبين لنا أن الصادق مع الله عزوجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة والقيام بأوامر الله عزوجل والانتهاز عن نواهيه، يريد بذلك وجه الله عزوجل متبعاً في ذلك رسول الله ﷺ.

٣ - سلامة القلب :

إن من علامة الصدق سلامة القلب وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته. وهذه الحالة القلبية تظهر علاماتها على الأعمال وذلك بتجنب الظلم والعدوان والاستطالة على الأعراض والحرص على العدل والقسط مع الناس،

(١) طريق الهجرتين ص ١٦٧ - ١٧١.

والانطلاق بما في الوسع لقضاء حاجات المسلمين، وإغاثة ملهوفهم ودفع الظلم عنهم، والحزن على مصابهم والفرح لفرحهم. إن كل هذه الخلال يفرزها سلامة القلب والذي هو بدوره علامة من علامات الصدق. وهذه الحالة تفرز أيضاً علامة أخرى من علامات الصدق ألا وهي: محبة الناس لمن هذه حاله فيصبح مألوفاً لهم؛ لأنه صدق معهم فألفهم وألفوه وتواضع لهم فأحبوه، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(١).

٤ - حفظ الوقت وتدارك العمر :

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به، لا ينفقه إلا فيما يربو نفعه في الآخرة، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها ثم قام وتركها، فبادر بالأعمال الصالحة في فراغه وصحته وشبابه وحياته، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه وتضيع عليه وقته وتبدد عليه عمره القصير بما لا ينفع.

يقول الشيخ سفر وفقه الله تعالى :

«فإذا عرف العبد أن الحياة ما هي إلا أنفاس تتلاحق ودقائق تتسابق وأنه لو أحصى حظه منها لوجدته ينقص كثيراً عن عمر بعض الطيور والزواحف والأشجار فضلاً عن أعمار الكواكب والنجوم فضلاً عن عمر الكون كله فضلاً عن مدى عالمي الغيب والشهادة مجتمعين. . . وعلم مع هذا أنه مخلوق لحكمة واضحة وغاية محددة هي عبادة ربه سبحانه وحده لا شريك له، فلا بد أن يحرص أشد الحرص على حفظ الوقت، وإشغاله بالعبودية وإعمال

(١) أحمد (٢/٤٠٠)، وصححه أحمد شاكر (٩١٨٧/١٨/١٧).

البدن في الطاعة وإلا اعتراه النقص في إيمانه بقدر ما يعتريه من نقص في ذلك»^(١).

وهذا ليس نقصاً وحسب بل هو تأخر وانقطاع لأنه «إن لم يكن في تقدم فهو في تأخر ولا بد؛ فالعبد سائر لا واقف؛ فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، وإما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار؛ فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة؛ وإنما يتخالفون في جهة السير وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبْرِ (٣٥) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، ولم يذكر واقفاً؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة»^(٢) اهـ.

٥ - الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك :

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس والقناعة بما كتب الله عزوجل، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص وهي تتبع أصلاً من صحة المعتقد وكمال التوحيد لله عزوجل.

وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: « لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضرب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل

(١) عن كتاب: ظاهرة الإرجاء في الفكر المعاصر ص ١١١.

(٢) مدارج السالكين (١/٢٦٧).

على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص؛ فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا ويبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضمر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ إن مدحي زين وذمي شين، فقال: «ذلك الله عزوجل»^(١).

فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه. ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب. قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]^(٢).

٦ - تصديق القول بالفعل وموافقة الظاهر للباطن :

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢، ٣]، فإذا وجد تطابق القول مع الفعل عند أحد فهذا من علامة الصدق إن شاء الله، وهذا مرتبط بموافقة الظاهر للباطن والسريرة للعلائية؛ فإذا أمر بأمر كان أول الفاعلين له، وإذا

(١) الترمذي ك التفسير (٣٢٦٣)/(٩/١٩).

(٢) الفوائد لابن القيم ص ١٤٩.

نهى عن شيء كان أول المنتهين عنه، وإذا تكلم بأمر فهو الذي في قلبه وليس من الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في السير في ترجمة الحسن البصري :
«عن عبد الصمد بن عبد الوارث : حدثنا محمد بن ذكوان ، حدثنا خالد ابن صفوان ، قال : لقيتُ مسلمة بن عبد الملك فقال : يا خالد ، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلتُ : أصلحك الله ، أخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلى جنبه ، وجليسه في مجلسه ، وأعلم من قبلي به : أشبهُ الناس سريرةً بعلائية ، وأشبههُ قولاً بفعل ، إن قعدَ على أمر قام به ، وإن قام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، رأيتُهُ مستغنياً عن الناس ، ورأيتُ الناس محتاجين إليه ، قال : حسبك ، كيف يضلُّ قومٌ هذا فيهم؟!»^(١) .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعليقه على قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه » : « إشارة إلى أنه لا يكفي قيامه في الحق إذا كان على غيره ، حتى يكون أول قائم به على نفسه ، فحينئذ يقبل قيامه له على غيره ، وإلا فكيف يقبل الحق ممن أهمل القيام به على نفسه»^(٢) .

٧ - الصدق في الحديث :

ولعل هذه العلامة من أبرز علامات الصدق الظاهرة على اللسان . والذي يصدق فيما يخبر به من أمور ماضية ، ويصدق فيما يعد به من أمور مستقبلية ، ويأتي حديثه مطابقاً لواقع الأمر ؛ إن مثل هذا يكون في العادة

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٧٦) .

(٢) إعلام الموقعين (٢/١٨) .

صادقاً في أموره الأخرى إذا أراد التقرب بذلك لله عزوجل وقد مر بنا الحديث المشهور «وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً... الحديث».

ومما يرتبط بالصدق في نقل الأخبار التثبت في نقلها، وعدم العجلة في تلقف الأخبار دون تمحيص وتبين، واتباع الظن. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا... الآية﴾ [الحجرات: ٦]، كما أن الصدق في الحديث يستلزم مجانبة الظنون كما قال الرسول ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»^(١).

كما أن من علامات صدق الحديث: قلة الكلام وعدم التحدث بكل ما يسمع قال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»^(٢). كما أن من علامة الحرص على صدق الحديث عدم الدخول فيما لا يعني قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٣).

٨- إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور:

إن من علامة صدق العبد فيما يعمله لله عزوجل حرصه على إخفاء عمله وكراهة اطلاع الناس عليه، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عزوجل كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عزوجل الذي يسمع ويرى ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها. وإن حياة سلفنا الصالح مليئة بهذه النماذج الوضيئة نذكر منها ما

(١)، (٢) سبق تخريجهما

(٣) الترمذي ك الزهد (٢٣١٨)/(٧/٧٧)، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١٨٨٦)/

. [(٢٦٨/٢)].

يلي:

* عن بكر بن ماعز قال: مارئي الربيع متطوعاً في مسجد قومه قطّ إلا مرة واحدة^(١).

* وعن سفيان قال: أخبرني سريّة الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سراً؛ إن كان ليحيى الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه^(٢).

* وعن منذر، عن الربيع بن خثيم قال: كلّ ما لا يُتَغى به وجهُ الله عزوجل يضمحل^(٣).

* وعن أبي حمزة الثمالي قال: كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به. ويقول: «إن صدقة السرّ تطفى غضب الرب عزوجل»^(٤).

* وعن عمرو بن ثابت، قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سُود في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُربَ الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة^(٥).

* وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه

(١) صفة الصفوة (٣/٦١).

(٢) صفة الصفوة (٣/٦١).

(٣) صفة الصفوة (٣/٦١).

(٤) صفة الصفوة (٢/٩٦).

(٥) صفة الصفوة (٢/٩٦).

الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] (١).

٩ - الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين :

إن من أخطر ما على النفوس أن ينشغل العبد بغيره بالنقد والتقويم وينسى نفسه والتفتيش عن عيوبها وهذا - وللأسف - كثير عندنا في زماننا هذا. وإن من علامات صدق العبد مع ربه ومع نفسه أن ينشغل بنفسه وإصلاحها وتقويمها أكثر مما يعطيه لغيرها، وإذا وجدت هذه الصفة نتج عنها المحاسبة للنفس والتربية والتزكية لها، كما ينتج عن ذلك أيضاً احتقار النفس في ذات الله عز وجل والنظر إليها بعين التقصير في جنب الله، وبالتالي تنتفي صفات العجب والغرور والاعتداد بالنفس، وعلى هذا فلا يجتمع الصدق والعجب في قلب المؤمن أبداً. كما أن هذه الصفة تطهر القلب من الحقد على المسلمين وتُصَيِّدُ أخطائهم وعثراتهم، والتفكك بذلك في المجالس بحجة الدعوة وبيان الأخطاء والتحذير منها. وهاهم أصحاب محمد ﷺ في محاسبتهم لأنفسهم، واستصحابهم الشعور بالتقصير وسوء الظن بالنفس، واستعظام الهفوة حتى أنهم يرون ما ليس بذنب ذنباً.

(١) تفسير ابن كثير سورة الأعراف آية ٥٥.

* عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه - في حديث عظيم له - «ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً..»^(١).

* وعن إبراهيم أن أباه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أتى بطعام وكان صائماً فقال: «قتل مصعب بن عمير - وهو خير مني - كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه - وأراه قال: وقتل حمزة - وهو خير مني - ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا، وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام»^(٢).

١٠ - الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عزوجل :

إن الصدق في محبة الله عزوجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل؛ حيث لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال وهو يرى دين الله عزوجل يتتهك ويقصى من الحياة، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم، إن المؤمن الصادق الإيمان لا يُقدِّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية.

ولكن إلى الله نشكو حالنا وضعف إيماننا وركوننا إلى دنيانا؛ حيث إننا

(١) مسلم ك الزهد (٢٩٦٧) / (٤/٢٢٧٩).

(٢) البخاري ك الجنائز (١٢٧٥) / فتح (٣/١٦٩)، ومواضع أخرى.

إذا رجعنا إلى قلوبنا وفتشنا عن الاهتمامات التي تملؤها؛ لم نجد عند أكثرنا - ويا للأسف - إلا اهتمامات دنيوية بحتة هي التي تحتل الأرقام الأولى في تفكيرنا: فمننا من همه الأول منصب يحصل عليه، ومننا من همه شهادة يتسلمها ليعيش بها، ومننا من همه زوجته وأولاده أو تجارته وأمواله... إلخ. من هذه الاهتمامات الفانية. ثم إن كان هناك فضول تفكير واهتمامات جاء أمر هذا الدين والدعوة إليه بعد الاهتمامات السابقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف الصدق عندنا في الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأى دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم - قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ولرسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»^(١) اهـ.

١١ - التميز :

إن التميز في حياة المؤمن أمر ضروري جداً خاصة في عصور الغربة

(١) إعلام الموقعين (٢/٤٧٦).

وطغيان أعمال الجاهلية والحياة المادية على حياة الناس . وإن من علامة الصدق في التمسك بهذا الدين والعض عليه؛ أن يتميز المسلم بالتمسك والقبض على دينه عقيدة وعبادة وسلوكاً ، وأن لا يتميع في دينه وينصهر مع المتفلتين منه تحت وطأة الفساد وضغوط الواقع ومسايرة المجتمع .

نعم ، إن المسلم الصادق يعرف بتميزه وإصراره على دينه بين الناس ، فيعرف بصحة معتقده عند فساد المعتقدات ، وبالتزامه بالسنة عند فشو المبتدعات ، وبصدق إيمانه إذا فشا الكذب والنفاق ، وبعبادته إذ الناس يلهون ويلعبون ، وبأخلاقه إذا أهدرت الأخلاق وضيعت ، وبالصدق في المعاملات إذا فشا الغش والخيانة والغدر ، ويعرف بصمته إذا كثر الخوض والقبل والقال ، وبمحاسبة نفسه وتهذيبها إذا خاض الناس بعضهم في بعض ، وبدعوته وجهاده في سبيل الله عزوجل إذا أقبلت الدنيا على أهلها وغرقوا في لججها . . . إلخ صور التميز التي يقتضيها الصدق والإخلاص . ولاشك أن المعاناة ستكون شديدة لكنها محمودة العواقب في الدنيا والآخرة . وهذه هي صفات الغرباء الذين قال فيهم الرسول ﷺ : «طوبى للغرباء؛ أناس صالحون في أناس سوء كثير ، من يعصيهم أكثر من يطيعهم»^(١) .

«والحقيقة أن قلب الصادق شديد الحساسية فلا يحتمل هؤلاء المثبتين؛ ولهذا فهو يضيق بهم ولا يستطيع مجاورتهم ولا مصاحبتهم ولا مجالستهم . إنه ينشرح صدره ويهش لمن يشوقه إلى الإسراع إلى الله والدعوة إليه»^(٢) .

(١) أحمد (١٧٧/٢)، وصححه أحمد شاكر (٦٦٥٠) / (١٠/١٣٥)، وصححه الألباني / صحيح الجامع (٣٩٢١) .

(٢) أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ص ٣٣٤ .

١٢ - قبول الحق والتسليم له :

إن من علامات الصدق لدى المسلم إذعانه للحق وقبوله من أي جهة كانت، فالصادق لا تراه إلا باحثاً عن الحق الذي يتعبد به لربه عزوجل ويقربه إلى مولاه، وإذا بان له الدليل ولاح له الحق فرح به ووجد فيه بغيته، ولا يرده أبداً مهما كان قائله: صغيراً كان أو كبيراً، عدواً كان أو صديقاً.

وإذا وجدت هذه الصفة الكريمة عند المسلم وصارت من عاداته وأخلاقه فإنها تنفي كثيراً من الصفات الذميمة مثل: الكبر والاستعلاء والتعصب للآراء والتحيز للأشخاص والهيئات، كما أنها تورث المحبة والألفة بين أهل العلم والدين، وتورث الاجتماع والائتلاف وتنفي الفرقة والاختلاف.

كما أن قبول الحق والتمسك به يقتضي القول به والدعوة إليه دون لبس أو تردد؛ فالصادق لا تراه إلا صادقاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم ولا يجامل ويدهن في ذلك، ولا تصده رغبة ولا رهبة عن قول الحق، كما أن محبته للصدق وقول الحق يجعله لا يمدح أحداً بما ليس فيه، ولا يبخس الناس أشياءهم وحقوقهم؛ فلا يدفعه حبه لشخص ما أن يدفن عيوبه أو يبررها، كما لا يدفعه بغضه لشخص أن يدفن محاسنه أو يسيء الظن بها، وإنما رائده في ذلك كله الصدق والعدل والإنصاف.



بعض الوسائل الجالبة للصدق

إن معرفة الوسائل الجالبة للصدق لا تكفي وحدها لجلب الصدق مالم يصاحبها الصدق في طلب الصدق ، فمتى علم الله سبحانه صدق عبده في التوجه إليه هداه لذلك . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

ومن هذه الوسائل :

١ - توحيد الله عزوجل وصحة المعتقد :

إن توحيد الله عزوجل وإفراده بالعبادة هو الغاية التي خلقنا الله من أجلها ، وهو أول واجب على المكلف ، وإن تحقيق التوحيد وتصحيح المعتقد هو الذي يجلب الصدق والإخلاص للعبد ، فكلما تحقق التوحيد منه ظهر الصدق في حياته جلياً واضحاً ؛ لأن أكثر ما يقع المرء في الكذب والنفاق هو الخوف من المخلوق أو الطمع فيما عنده . وبمعنى آخر : هو التعلق بغير الله عزوجل رغبة ورهبة . فإذا صح التوحيد وتعلق العبد بالله وحده في كل أموره ؛ فإن مظاهر الكذب والنفاق تختفي من حياته لأنه قد وجه وجهه لله وحده خوفاً ومحبة ورجاءً وتعظيماً .

وإن حقيقة التوحيد لا توجد إلا بأن يعرف العبد ربه حق المعرفة بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، كما عرفنا هو سبحانه بنفسه وعرفه رسوله ﷺ ، لا كما عرفه أهل الأهواء والبدع ، وبالتالي يدعن بقلبه وقالبه لربه فيمتملى

القلب بالمحبة والإجلال والخضوع والإخلاص والصدق وبقية أعمال القلوب، ويظهر مصداق ذلك على استسلام الجوارح وانقيادها لطاعة الله عزوجل؛ وبذلك يتوزع الصدق على قلبه ولسانه وجوارحه .

وإن معرفة الله عزوجل وتوحيده لا بد لها من العلم الشرعي والفقه الصحيح لهذا الدين؛ حتى تتم عبادة الله عزوجل على بصيرة واتباع لا على عماية وابتداع، ومن هنا نقول أيضاً: إن العلم الشرعي وسيلة هامة من الوسائل الجالبة للصدق .

٢ - الإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله عزوجل :

إن المؤمن حقاً باليوم الآخر وبالْحَسَابِ والجزاء وبالجنة والنار لا تراه إلا صادقاً في جميع أموره، وإن حصل منه كبوة فسرعان ما يقلع عنها بالتوبة والاستغفار؛ لأن من أيقن بالوقوف بين يدي ربه عزوجل والإحصاء الدقيق لكل أقواله وأعماله وأحواله وعرضها على الله عزوجل يوم القيامة؛ سوف يكون حذراً في الدنيا وسوف تنصغ حياته بالصدق؛ لأنه يوقن أنه لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق، قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩]

إن الإيمان باليوم الآخر وملاقة الله عزوجل هو الذي دفع المؤمنين لطاعة ربهم، وهو الذي دفع المجاهدين في سبيل الله عزوجل ليبذلوا أنفسهم وأموالهم رخيصة لربهم عزوجل، ولولا صدق هذا الإيمان لما كانت هذه التضحيات وهذه البطولات الصادقة، قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَنْدُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [٤٤] إِنَّمَا يَسْتَنْدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رِيهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿ [التوبة: ٤٤، ٤٥].

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

«وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ. فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقلاً كما أمرهم الله، طاعة لأمره، و يقيناً بلاقائه، وثقة بجزائه، وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلاً عن الإذن لهم. إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتكبتها اتقاء لمتاعب الطريق!»^(١) . ١. هـ.

وقد مر بنا في قصة بني إسرائيل الذين قاتلوا مع طالوت أن الذين ثبتوا في النهاية وحثوا قومهم على الثبات؛ هم الذين أيقنوا بقاء الله عزوجل في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٣. -التخفف من الدنيا وعدم الركون إليها :

إن التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت

(١) في ظلال القرآن: سورة التوبة ٤٤- ٤٥.

قبل نزوله، كل هذا من الوسائل المهمة في إنشاء الصدق في حياة المسلم والعكس صحيح؛ فالانغماس في ملذات الدنيا وترفها والركون إليها ينتج عنه غفلة عن الآخرة وينشأ عنه تشتت القلب في أوديتها وإعمال الفكر للاستزادة منها والخوف على فواتها، وهنا يضعف الصدق لشحن القلب بها. كما أن ضعف الصدق ينشأ أيضاً من مظاهر الكذب والتدليس والطمع والجشع والمعاملات المحرمة والتي قل من يسلم منها من أهل الدنيا، وخاصة في واقعنا المعاصر والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات والكذب والغش والجشع.

٤ - مصاحبة الصادقين :

إن في صحبة الصادقين من المؤمنين نفعاً عظيماً لمن صاحبهم وخالطهم وهذا شيء معروف ومجرب؛ فالإنسان تؤثر فيه البيئة التي يعيش فيها والخلطاء الذين يخالطهم. وهذا هو ما يسميه الربون وعلماء النفس التربية بالقدوة؛ لأن رؤية القدوات الصادقة لا بد أن تؤثر فيمن صاحبهم - إذا كان أهلاً للخير -، والعكس صحيح فصحبة المنافقين والكذابين والدجالين لا بد أن تظهر صفاتهم على من صاحبهم. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فالكون مع الصادقين طريق إلى الصدق والاتصاف بصفاتهم والتحلي بأخلاقهم، وهم الذين ظهرت عليهم علامات الصدق التي أشرنا إليها في المبحث السابق.

قال يوسف الواعي في سلوك المسلم :

« العيش مع الصادقين نعمة لا ينالها إلا كل سعيد، ومخالطتهم هناء لا يحظى به إلا كل موفق، ومصاحبتهم أمان لا يحسه إلا أصحاب البصائر والنهي؛ لأن للكذابين ضمائر خربة وذمماً ملوثة، لا يؤمن لهم جانب، أو

يطمان إلى قولهم أو يؤنس إلى فعلهم، فمن سمات الصادقين، شفافية ووضوح، ونقاء وطهر، ورجولة ووفاء، ومن علامات الصدق طمأنينة القلب إليه^(١) اهـ.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياذ الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر». وقال أيضاً: «اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة، وذلك لقرب قلوبهم من الله».

كما يدخل في هذه الوسيلة الإكثار من قراءة سير الصالحين الصادقين من أنبياء الله الكرام وصحبهم الأجلاء والتابعين لهم بإحسان؛ فإن في ذلك تربية بالقدوة والسير على آثارهم.

٥ - النظر في عاقبة الصدق :

إنه يكفي لجلب الصدق والتخلق به أن ننظر في عاقبته الحميدة في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تحصل منه البركة والنماء في الأموال كما قال ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»^(٢)، كما أن فيه النجاة من مضايق الدنيا وشدائدها كما سبق في حديث الثلاثة أصحاب الغار، كما أن فيه كسب محبة الناس وتقديرهم، وغير هذا كثير في الدنيا.

أما في الآخرة فيكفي أن نعلم أنه لا ينفع من الأعمال والأقوال عند الله عز وجل يوم القيامة إلا ما كان فيه الصدق والإخلاص، وأما ما سوى ذلك

(١) سلوك المسلم ليوسف الواعي ص ٥١.

(٢) سبق تخريجه .

فيذهب أدراج الرياح ولا يكون حظ صاحبه منه إلا التعب والسهر. قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩] ، وقال عز وجل: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٤] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق هو استشعار هذا الأمر، وتحري الصدق في كل الأحوال حتى يربح العبد ثواب الله عز وجل، ويحرص أشد الحرص على تجنب ما يفسدها مما ينافي الصدق، فتضيع عليه أعماله في يوم أشد ما يكون حاجة إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزانه.

٦ - الإكثار من الأعمال الصالحة وإخفاء ما يمكن منها :

إن الإكثار من الأعمال الصالحة وخاصة المخفي منها يعتبر من الوسائل التي يتوصل بها إلى الصدق والإخلاص، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها... الحديث»^(١).

فالشاهد من هذا الجزء من الحديث القدسي هو محبة الله عز وجل للمكثر من النوافل حتى تصبح جوارحه لا تنطلق إلا في مرضاة الله عز وجل، وهذا هو حقيقة الصدق، ثم إنه كلما كان العمل لا يراه إلا الله عز وجل كان أقرب للصدق والإخلاص، ولذا جاء الترغيب في أداء النوافل في البيوت وإخفاء ما يمكن إخفاؤه لأنه أرجى للقبول والثواب لتحقيق الصدق، أما ما لا يمكن إخفاؤه كأداء الفرائض فهذه لا بد من إظهارها مع جماعة المسلمين، وهي

(١) سيأتي تخريجه.

وسيلة مهمة من وسائل جلب الصدق والتعود عليها إذا صاحبها الإخلاص .

٧ - تحري الصدق في الحديث وتجنب الكذب :

إن توطين النفس على الصدق في الحديث ومجاهدتها في ذلك هو بداية الطريق الموصل بإذن الله عز وجل للوصول إلى الصدق الشامل في جميع الأحوال، بل هو الوسيلة إلى نيل مرتبة الصديقية الشريفة . قال ﷺ : « . . وما يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . . . الحديث » .

فتحري الصدق وترويض النفس عليه يصيره خلقاً وعادة للنفس يسري على جميع الأحوال، وكذا الحال في الكذب فإن التهاون به والترخص فيه وعدم محاسبة النفس في ذلك يبعتها عن الصدق بل يصير عادة وطبعاً للعبد، وقد يؤدي به ذلك إلى أن يكتب عند الله كذاباً والعياذ بالله .

والمقصود أن تحري الصدق والوسائل الموصلة إليه، وتجنب الكذب والوسائل المؤدية إليه، كل ذلك يؤدي إلى الصدق، وبالتالي إلى المرتبة العظيمة؛ ألا وهي مرتبة الصديقية التي يتنافس فيها الصادقون ويشمر إليها المشمرون .

وثمة مسألة أرى أن لها علاقة بهذه الوسيلة وهي من أكثر الوسائل التي توقع المرء في الكذب ألا وهي (الوقوع فيما يعتذر منه)؛ فإن الوقوع فيما يعتذر منه وينتقد فيه صاحبه لهو من الأسباب التي تلجئ إلى الكذب حتى يبرر موقفه أو يزيل عن نفسه التبعة والخطأ؛ فيلجأ إلى الكذب ويفر من الصدق لأنه بظنه يؤدي إلى سقوطه من أعين الناس أو تحميله مسؤولية خطئه، مع العلم أن النجاة في الصدق ولو بعد حين، ولذلك أرى من

الوسائل الجالبة للصدق هو تجنب ما يعتذر منه ما يمكن، هذا اولا، وتانيا لو وقع منه ما يعتذر منه فإن النجاة في الصدق ولو حصل مفسدة قليلة من جراء ذلك، اللهم إلا إذا كانت المفسدة كبيرة وعمامة فحيثئذ يوازن بين الأمرين كما سبق إيضاحه في الصدق المذموم.

« وقد يندفع الإنسان إلى الكذب حين يعتذر عن خطأ وقع منه، ويحاول التلصص من عواقبه. وهذا غباء وهوان، وهو فرار من الشر إلى مثله أو أشد. والواجب أن يعترف الإنسان بغلطه، فلعل صدقه في ذكر الواقع، وآلمه لما بدرَ منه يمسخان هفوته ويغفران زلته.

ومهما هَجَس في النفس من مخاوف - إذا قيل الحق - فالأجدر بالمسلم أن يتشجع، وأن يتحرج من لوثات الكذب»^(١) اهـ.

٨ - الإكثار من دعاء الله عزوجل والاستغفار:

إن ما سبق ذكره من الوسائل لا تحصل للعبد بدون توفيق الله عزوجل وإعانتته له على تحصيله لها؛ ولهذا فلا بد للعبد أن يستعين بربه عزوجل في أموره كلها؛ ومنها هذا الأمر - .

فالأمر كله بيد الله عزوجل ولا حول ولا قوة إلا به، ولو تخلى الله سبحانه عن عبده لحظة واحدة لهلك؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ الإكثار من هذا الدعاء: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»^(٢).

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ، والله إنني لأحبك؛ أوصيك يا معاذ لا

(١) أخلاق المسلم للغزالي ص ٤٣.

(٢) رواه الحاكم (١/٥٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٨٢٠.

تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^(١)، فالعبد لا يقدر على شيء من أمور الدين أو الدنيا إلا بتوفيق الله سبحانه والاستعانة به عزوجل.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيتته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستعانة بالله واللجوء إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته. فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدأ، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولا ريب أن من وُفق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق، ومن حُرِمه فقد منع الطريق والرفيق، فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق فقد سلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»^(٢) اهـ.

والمقصود أن من أعظم الوسائل الجالبة للصدق دعاء الله بصدق للتوفيق إلى الصدق، وقد كان من الدعاء الذي علمه الله سبحانه لنبيه ﷺ هو قوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠]، ففي هذا الدعاء العظيم سؤال الله عزوجل الصدق في جميع المداخل والمخارج أن تكون لله وبالله وبأمره وابتغاء مرضاته.

(١) أبو داودك الصلاة (١٥٢٢)/(١٨١/٢)، والنسائي (٥٣/٣). وصححه الألباني [صحيح

الجامع (٧٩٦٩)].

(٢) إعلام الموقعين (١٧٨/٤).

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلاً آخر - إلا بصدق أو بكذب ، فمخرج كل واحد ومدخله : لا يعدو الصدق والكذب ، والله المستعان » ^(١) اهـ .

وقال القرطبي رحمه الله عن هذه الآية : « فهي دعاء ، ومعناه : رب أصلح لي وردي وصدري في كل الأمور » ^(٢) اهـ .

وجاء عنه عليه السلام دعاؤه : « اللهم طهر قلبي من النفاق ، وعملي من الرياء ، ولساني من الكذب ، وعيني من الخيانة ؛ فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » ^(٣) .

وهذا دعاء بالصدق الشامل للقلب واللسان والعمل . والأدعية كثيرة ، وما تم إيرادها على سبيل المثال لا الحصر ، والمقصود من ذلك التنبيه على هذا الباب العظيم من الوسائل الجالبة للصدق ألا وهو اللجوء إلى الله عز وجل بنية صادقة لالتزام الصدق وما يؤدي إليه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والمعول في ذلك كله على حسن النية ، وخلوص القصد ، وصدق التوجه في الاستمداد من المعلم الأول : معلم الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ؛ فإنه لا يرد من صدق في التوجه إليه لتبليغ دينه وإرشاد

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧١) .

(٢) تفسير القرطبي الإسراء ٨٠ .

(٣) رواه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٥/ ٢٦٨) ، والبيهقي في الدعوات الكبير . وضعفه الألباني [ضعيف الجامع (١٢٠٩)] .

عبده ونصيحتهم والتخلص من القول عليه بلا علم»^(١) اهـ.

ومن دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»^(٢).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع إحداهما، فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها. فإذا حصل الثبات أولاً، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح، والله ولي التوفيق»^(٣) اهـ.



(١) إعلام الموقعين (٤/٢٥٨)

(٢) رواه أحمد (٤/١٢٥)، والنسائي (٣/٥٤).

(٣) مفتاح دار السعادة ص ١٥٤.

من ثمرات الصدق

إن عاقبة الصدق حميدة في الدنيا والآخرة وثمراته كثيرة وعظيمة، وإن مدار القبول والثواب عند الله عز وجل على الصدق والإخلاص .

وعكس ذلك الكذب الذي هو أساس الفجور والفساد والهلاك .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : «إياك والكذب فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس؛ فإن الكاذب يصور المعدوم موجوداً والموجود معدوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، والخير شراً والشر خيراً؛ فيفسد عليه تصوره وعلمه عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المخاطب المغتر به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه .

ونفس الكاذب معرضة عن الحقيقة الموجودة، نزاعة إلى العدم، مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسرى حكم الكذب إليها؛ فصار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله : ولهذا كان الكذب أساس الفجور كما قال النبي ﷺ : «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار»^(١) .

(١) سبق تخريجه .

وأول ما يسري الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده، ثم يسري إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها كما أفسد على اللسان أقواله؛ فيعم الكذب أقواله وأعماله وأحواله فيستحكم عليه الفساد ويتراعى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق يقلع تلك المادة من أصلها.

ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب؛ فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] (١) اهـ.

وقد سبق في مبحث (علامات الصدق) ذكر شيء من هذه الثمرات؛ لأن الثمرة إذا أُنعت فإنها تصير علامة ظاهرة على صاحبها، ولذا فقد أضطر إلى التكرار لما جاء هناك ولكن بمنظار آخر.

ومن هذه الثمار مايلي:

- ١ - الحصول على الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله عز وجل :
- إن الأعمال التي يصدق فيها صاحبها مع الله عز وجل وبيتغي بها وجهه

سبحانه هي التي يبقى ذخرها ونفعها يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

يقول القرطبي عند تفسير هذه الآية : « وإنما ينفعهم الصدق في ذلك اليوم وإن كان نافعاً في كل الأيام لوقوع الجزاء فيه » . ١ . هـ .

ويقول الإمام الطبري عند هذه الآية : « ﴿ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ ﴾ في الدنيا ، ﴿ صِدْقُهُمْ ﴾ ذلك في الآخرة عند الله ، ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ يقول : للصادقين في الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ثواباً لهم من الله عزوجل ، على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه ، فوفوا به لله ، فوفى الله عزوجل لهم ما وعدهم من ثوابه » ^(١) . اهـ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧] أي ما كان خالصاً لوجه الله عزوجل ، صادقاً فيه لربه سبحانه .

٢ - الطمأنينة والسكينة والثبات :

لقد مر بنا في علامات الصدق الحديث عن هذه الثمرة ، وقد أوردتها هناك لأنها من علامات الصدق العظيمة التي يثمرها الصدق مع الله عزوجل في الأحوال كلها ، ومن آثار الطمأنينة والسكينة في القلب عدم اضطرابه وتقلبه عند ثورة الشبهات أو الشهوات ، بل يبقى ثابتاً مطمئناً لا تزعزعه الفتن ولا تقلقه البلايا والنوازل ؛ وذلك لما في قلبه من الصدق الذي صار به

(١) تفسير الطبري (٧/١٤٢) طبعة الحلبي .

مطمئناً مقتنعاً بما يعتقد، تزول الجبال ولا تزول هذه القناعة من قلبه؛ بعكس القلوب المريضة المليئة بالكذب والريبة فلا تراها إلا مضطربة لا تثبت على شيء ولا تتماسك أمام فتن الشبهات أو الشهوات، وهذا مصداق قوله ﷺ: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»^(١).

وقد أورد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى كلاماً نفيساً حول هذا المعنى فقال: «تحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناؤه وأنفق منه فقد غنم، ومن حُرِّمه فقد حُرِّم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله له طرفة عين، فإن لم يثبتته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما.

وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه وعبدته ورسوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كَدَتِ تَرَكُّنٌ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم»^(٢)، وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]

(١) سبق تخريجه .

(٢) أحمد: ٣٦٨/٢، والترمذي كصفة الجنة (٢٥٦٠): ٢٣٤/٧ عن أبي هريرة . وصححه الترمذي وأحمد شاكر (٨٨٠٣): ١٣/١٧ . وأصله في الصحيحين بغير الجملة المذكورة هنا . وليس هو من حديث البجلي وإنما ورد من حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنهم .

فالخلق كلهم قسمان : موفق بالتثبيت ، ومخذول بترك التثبيت ، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت وفعل ما أمر به الله ، فبهما يثبت الله عبده ، فكل من كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبيتاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴾ [النساء : ٦٦] ، فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً ، والقول الثابت هو القول الحق والصدق ، وهو ضد القول الباطل الكذب ؛ فالقول نوعان : ثابت له حقيقة ، وباطل لا حقيقة له ، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها ، فهي أعظم ما يثبت الله بها عبده في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلباً ، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلوناً وأقلهم ثباتاً ، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابتة ، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك ، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة .

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به ، فقال : والله ما فهمت منه شيئاً إلا أنني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل ، فما مُنح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت ، ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم ، كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر^(١) .

وإن من آثار الطمأنينة في القلب سكينته واستقراره ، وهذا يظهر على

(١) أعلام الموقعين ١/ ١٧٦-١٧٧ .

والحديث في : البخاري كالجناز (١٣٦٩) : ٣/ ٢٧٤ ، ومسلم ك اللجنة وصفة نعيمها

(٢٨٧١) : ٤/ ٢٢٠١ .

الجوارح والمواقف المختلفة، وأنقل هنا كلاماً بديعاً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حول السكينة فيقول:

« فالسكينة فعيلة من السكون، وهي طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل وقد ألقى في المنجنيق مسافراً إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر! وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا وهذا فرعون خلفنا! وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له نداء ونجاء كلاماً حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعباناً مبيناً، وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم تحت قدميه لرأهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب - ولا سيما على الله - أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشدّه اضطراباً في مثل هذه المواطن؛ فلو لم يكن للرسول صلوات الله

وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم .

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم ، وهي سكينه الإيمان وهي سكينه تسكن القلوب عن الريب والشك ، ولهذا أنزلها الله على المؤمنين في أصعب المواطن أحوج ما كانوا إليها ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ٤] ، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم ، وهي السكينه عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك يوم الحديبية .

قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] ، لما علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله ، وحبسوا الهدي عن محله ، واشتروا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة ، فاضطربت قلوبهم ، وقلقت ولم تُطق الصبر ، فعلم تعالى ما فيها ، فثبتها بالسكينه رحمة منه ورأفة ولطفاً ، وهو اللطيف الخبير .

وتحتمل الآية وجهاً آخر ، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله فثبتها بالسكينه وقت قلقها واضطرابها . والظاهر أن الآية تعم الأمرين ، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينه وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿ [الفتح: ٢٦] ، لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينه تقابل حمية الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينه في قلوبهم، وكلمة التقوى على ألسنتهم، وحظ أعدائهم حمية الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم.

فكانت هذه السكينه وهذه الكلمة جنداً من جند الله أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم. وثمره هذه السكينه الطمأنينه للخبر تصديقاً وإيقاناً وللأمر تسليماً وإذعاناً، فلا تدع شبهة تعارض الخبر ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوسوس الشيطانية التي يبتلى بها العبد ليقوى إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينه عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغمض الطرف وجمعية القلب على الله تعالى بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينه وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»^(١).

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها، فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما

(١) موضوع مرفوعاً، وسنده جيد موقوفاً على سعيد بن المسيب. قاله الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠)/(١/٢٢٧).

اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء مالا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١). فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوسوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوسوس والخطرات القاذحة في أعمال الإيمان لثلا تقوى وتصير هموماً وغموماً وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لثلا يطمح به مركبه فيجاوز الحد الذي لا يُعبرَ فينقلب ترحاً وحنناً، وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمع به مركب الفرح وتجاوز الحد فانقلب ترحاً عاجلاً»^(٢) اهـ.

مما سبق يتبين لنا أهمية الصدق مع الله عزوجل ومراقبته في جلب السكينة والطمأنينة، وهذه الثمرة العظيمة هي محك اليقين والإيمان الحق، ولا تظهر أو تختفي إلا حين الشدائد وثوران الشهوات والشبهات أو الخوف والطمع.

وقد مر بنا قصة الذين خرجوا مع طالوت وتساقطوا فئة فئة أمام الامتحان، ولم يثبت إلا الصادقون الموقنون بقاء الله عزوجل: ﴿قَالَ الَّذِينَ

(١) رواه البخاري في الإيمان (٥٠)، ومسلم في الإيمان (٩) من حديث أبي هريرة. ورواه

مسلم في الإيمان (٨) من حديث عمر.

(٢) إعلام الموقعين (٢/٢٠٢).

يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمَا مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾.

قال القرطبي عند تفسير هذه الآية: «قال المؤمنون الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله تعالى عند ذلك وهم عدة أهل بدر: ﴿كَمَا مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾...»

قال ابن عباس والسدي: جاز معه النهر أربعة آلاف رجل فيهم من شرب، فلما نظروا إلى جالوت وجنوده وكانوا مائة ألف كلهم شاكون في السلاح رجع منهم ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون^(١) اهـ.

والحاصل: أن الثبات والطمأنينة أمام الخوف والطمع وأمام فتن الشبهات والشهوات؛ لا تتم وتكون إلا بالصدق في عبادة الله عز وجل واتباع محمد ﷺ والاستعداد الصادق للقاء الله سبحانه.

نسأل الله تعالى أن يربط على قلوبنا بالإيمان الصادق، وأن يشبثنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فهو سبحانه الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء، وينزل السكينة على من يشاء ويصرفها عن من يشاء بعلمه وحكمته؛ فلا يشبث إلا من ثبته الله عز وجل وعلم منه صدق التوجه واللجوء إليه سبحانه.

وعلى العبد أن لا يعرض نفسه للفتن والبلايا لأنه لا يدري ما تكون حاله حينئذ، بل يسأل الله عز وجل العافية، كما يسأله الصبر والثبات عند نزولها.

(١) تفسير القرطبي آية ٢٤٩ من سورة البقرة.

٣ - الاندفاع في الدعوة إلى الله عزوجل والتضحية في سبيله :

وهذه الثمرة هي محصلة الثمرة السابقة؛ فإن الصدق في عبادة الله عزوجل والاطمئنان لوعده الله عزوجل لعباده المؤمنين كل هذا يثمر في حياة المسلم اندفاعاً شديداً وحماساً متقدماً للدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله؛ وذلك لاطمئنانه بصحة طريقه ومنهجه ويقينه بلقاء ربه عزوجل ومجازاته على عمله يوم القيامة .

فبقدر ما يكون في القلب من الطمأنينة والقناعة بصحة المسار تكون الدعوة والتضحية، بعكس من لم يكن لديه القناعة والاطمئنان الكافيان فإن الحماس للدعوة يكون ضعيفاً، ولو كان قوياً في بداية الأمر فسرعان ما يضعف إذا لم يتحقق الصدق المثمر للثبات على الأمر وعدم الاهتزاز والتردد فيه .

وهذا أمر مهم يجب أن نتنبه إليه وينتبه إليه المربون وذلك في التربية على الصدق واليقين والقناعة التامة القائمة على الإخلاص لله عزوجل، والمتابعة لرسوله ﷺ . وهذا بدوره ينبهنا على بعض الأخطاء في التربية والتي يقوم بعضها على غير بصيرة وبالتالي على غير قناعة، وفي النهاية يخبو الحماس وتضعف التضحية أو لا توجد ألبتة .

إنه ليس أفضل ولا أربح في الدنيا والآخرة من العمل النابع من القناعة التامة بما يعمله المسلم والذي يثمر الاندفاع الشديد والعمل المتواصل إلى نهاية الأجل، وحتى توجد هذه الثمرة يجب علينا أن نتفقد حقيقة الصدق في نفوسنا نحو ديننا ونحو موعود الله عزوجل لنا، وأن لا نعلق أنفسنا ونحن ندعو إلى الله عزوجل في هذه الدنيا بشيء من مكاسبها، وإنما نربي أنفسنا

ومن حولنا على أن نبذل كل ما في وسعنا في هذا العمر القصير لنفوز برضوان الله عزوجل وجنته هناك في الدار الآخرة؛ لأن من تعلق بشيء من هذه الدنيا في عمله فإنه وإن اندفع في البداية فسيخبو بعد حين إذا نال مطلوبه أو يئس من الحصول عليه، بينما المؤمن الصادق المطمئن في سيره إلى الله عزوجل لا يتوقف أبداً إلا عند الموت؛ لأنه ربي نفسه على أن يعطي في هذه الدنيا ولا يأخذ فيها شيئاً وإنما علق نفسه بالآخرة هناك حيث الأجر والثواب.

وهذا ما كان يربي عليه الرسول ﷺ أصحابه حيث لم يعلقهم بشيء من هذه الدنيا وإن كان الله عزوجل قد فتح عليهم خزائنها، لكنه ﷺ كان يعلقهم بالجنة، فيمر على آل ياسر وهم يعذبون فلا يجد ما يواسيهم به إلا أن يقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^(١).

وعندما سأله الأنصار في بيعة العقبة بعد أن ذكر شرطه عليهم في البيعة فقالوا: مالنا إن بايعناك على ذلك؟ قال: «لكم الجنة»^(٢)، فلم يعدهم بشيء غير ذلك مع أنه قد تحقق لهم بهذه البيعة الفتوحات العظيمة، ولكنه ﷺ لم يعلقهم بذلك وإنما علقهم برضوان الله سبحانه والجنة، وهكذا تكون التربية.

والحاصل أنه كلما كان العبد صادقاً في معتقده وصادقاً في الاستعداد للقاء ربه سبحانه كلما كان مندفعاً مضحياً صابراً محتسباً في سبيل الله عزوجل، وإلا فما الذي جعل غلام الأخدود وإخوانه يقدمون على الموت

(١) الحاكم بنحوه: ٣/٣٨٨، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أحمد (٣/٣٢٢)، والحاكم (٢/٦٢٥) وصححه، ووافقه الذهبي وبنحوه مسلم

(٣/١٣٣٤) تحت (١٧٠٩).

الأحمر وهم يرونه رأي العين ولا يترددون؟ إنه والله الإيمان الصادق الراسي في قلوبهم رسو الجبال، وكذلك الذين قدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله عزوجل ما الذي دفعهم إلى التضحية بكل ذلك غير الإيمان الحق واليقين الصادق. نسأل الله عزوجل أن يلحقنا بهم.

٤ - القبول عند الناس والتأثير فيهم :

وهذه من أعظم ثمرات الصدق في الدنيا لأن الكلمة الصادقة والتي تنبع من قلب صادق تفعل فعلها في القلوب ويكتب الله لها القبول عند الناس، وهذا أمر مشاهد؛ فما من رجل حقق الصدق مع ربه عزوجل ووافقت سريرته علانيته، والتزم بما يدعو إليه مع نفسه قبل دعوة الناس إليه؛ إلا ويستجيب الناس له وتؤثر دعوته فيهم، إلا من أعرض ونأى بجانبه عن الحق، فمثل هذا لا تنفع فيه المواعظ من أي جهة كانت ولو من أنبياء الله عزوجل الذين بلغوا الكمال في الصدق والإخلاص.

وإن أكثر ما ينفّر الناس عن الداعية هو تناقض الداعية مع نفسه؛ حيث يدعو إلى الخير والبر وينسى نفسه، فهذه الحالة تجعل الناس في حيرة واضطراب بين سماع الطيب من كلام الداعية وبين ما يضاد ذلك من فعله وأحواله.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]:

«والدعوة إلى البر والمخالفة عنه في سلوك الداعين إليه، هي الآفة التي تصيب النفوس بالشك لا في الدعاة وحدهم ولكن في الدعوات ذاتها. وهي

التي تبلبل قلوب الناس وأفكارهم، لأنهم يسمعون قولاً جميلاً، ويشهدون فعلاً قبيحاً؛ فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل؛ وتخبو في أرواحهم الشعلة التي توقدها العقيدة؛ وينطفئ في قلوبهم النور الذي يشعه الإيمان؛ ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق. . . عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق. . . إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها؛ وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها. . . إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة. وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه؛ فملايسات الحياة وضروراتها واضطراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقد في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره. والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته، لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه؛ وقد يغالبها مرة ومرة ومرة؛ ولكن لحظة ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله؛ فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي قوي، أقوى من كل قوي. قوي على شهوته وضعفه. قوي على ضروراته

واضطراراته . قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه»^(١) .

وذكر صاحب الحلية عن مالك بن دينار قوله: «الصدق والكذب يعتركان، حتى يخرج أحدهما صاحبه، وإن الصدق يبدو في القلب ضعيفاً كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصناً واحداً، فإذا شققها الصبي ذهب أصلها، وإن أكلتها عنز ذهب أصلها فتسقى فتنتشر، وتسقى فتنتشر حتى يكون لها أصل أصيل يُوطأ، وظل يُستظل به، وثمره يؤكل منها. كذلك الصدق يبدو في القلب ضعيفاً، فيتفقد صاحبه ويزيده الله تعالى، ويتفقد صاحبه، فيزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، ويكون كلامه دواءً للخاطئين .

ثم قال مالك: أما رأيتموهم؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: بلى والله لقد رأيناهم: الحسن البصري، وسعيد بن جبير وأشباههم، الرجل منهم يحيي الله بكلامه الفئام - الجماعات - من الناس»^(٢) .

وذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة محمد بن واسع رحمه الله تعالى فقال: «روي أن قاصاً كان بقرب محمد بن واسع فقال: مالي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟ فقال محمد: يا فلان ما أرى القوم أتوا إلا من قبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب»^(٣) .

٥ - الألفة والحببة بين الناس :

لقد سبق في مبحث (علامات الصدق) الحديث عن سلامة القلب وحب

(١) في ظلال القرآن البقرة آية ٤٤ .

(٢) حلية الأولياء (٢/٣٥٩) .

(٣) السير للذهبي (٦/١٢٢) .

الخير للناس ونقاء القلب من الحسد والبغضاء لهم، وأن هذا من علامات الصدق، وبالتالي فإن مثل هذه الصفات إذا وجدت بين الناس فلا شك أن الألفة والمحبة ستسود بينهم، وبالتالي ينشأ المجتمع متآلفاً متكافلاً تنتشر بين أفراد المحبة والإخاء والتعاون، فلا يخشى بعضهم من بعض أن يخونه أو يغشه أو يكيد له أو يكر به؛ لأن كل هذه الخلال الذميمة ينفىها الصدق كما ينفى الكبر خبث الحديد.

فإذا وجد مثل هذا المجتمع المتواد المتراحم المتلاحم فهو حري بالخير العميم والوقوف أمام كيد الأعداء ومخططاتهم؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وإن تصبروا وتقفوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثم إن الصدق مع الله سبحانه في النصيح للمسلمين يقتضي ترك الظنون والإشفاق عليهم والحرص على جماعتهم، وهو بدوره يثمر المحبة والإخاء بين الناس. وعكس ذلك مشاهد؛ فالمجتمعات التي ينتشر فيها الكذب والظنون والغش والخداع مجتمعات متفككة متدابرة متناحرة، قد ذهبت ريحها وعرضت نفسها لكيد الأعداء واستباحة الديار، قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم... الآية﴾ [الأنفال: ٤٦].

نعم، إن الفشل هو ثمرة التنازع والتدابير والتباغض الناشئ عن ضعف الصدق مع الله سبحانه في عباده المؤمنين، كما أن التآلف واجتماع الكلمة ثمرة من ثمار الصدق والإخلاص، فلا تكاد تجد صادقاً مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين، إلا ويحرص ويسعى إلى كل ما من شأنه التآلف

والاجتماع ويكره وينبذ كل ما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف، قال ﷺ :
«ثلاث خصال لا يغفل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة
الأمر، ولزوم الجماعة؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(١).

٦ - الخير والنماء والبركة :

إن الصدق خير كله ليس في الآخرة فحسب وإنما في الدنيا قبل الآخرة،
فبالصدق يأتي الخير والنجاح وتحل البركة في الأموال والأولاد وكل
المعاملات والتصرفات، والعكس يكون في الكذب حيث يحق الله بركة
الشيء الناتج عن الكذب والخداع والمكر، وهذا مصداق قوله ﷺ :
«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما
وكذبا محقت بركة بيعهما»^(٢).

فهذا الحديث وإن كان في البيع والشراء فإنه يفيد أيضاً بركة الصدق في
كل الأمور. ولو ظهر أن في الصدق خسارة أو هلاك الأموال فالعاقبة
حميدة.

وقد يتوهم بعض الناس أن ستر الحقائق ودفن الأخطاء والعيوب في
التعاملات يدر لهم ربحاً ويدفع عنهم شرّاً، وهذا وهم وسراب فلا شيء
أفضل وأحسن بركة من الصدق ولو كان قليلاً، فقليل يبارك الله فيه خير من
كثير يحق الله بركته.

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٣/٥). وابن ماجه في المقدمة (٢٣٠). وهو في صحيح سنن ابن
ماجه (١٨٧).

(٢) متفق عليه. سبق تخريجه.

فإن التاجر قد يكذب في بيعه أو شرائه ويظن أن هذا فطنة وذكاء في كسب المال، وما علم المسكين أن ماله الذي يكتسبه من ذلك هو محق وخسارة وضياع.

وهذا أمر مشاهد وملاحظ حيث نسمع كثيراً من التجار وأصحاب الأموال الطائلة الذين لم يتحروا في مكاسبهم الصدق والحلال؛ نسمعهم يقولون: إننا لا ندري أين تذهب أموالنا ولا نحس ببركتها وثمارها، وغيرهم من الذين حاسبوا أنفسهم في كسب الحلال والصدق في المعاملات؛ نجدهم مطمئنين لما رزقهم الله عزوجل ويشعرون بالبركة فيه ولو كان قليلاً.

٧ - تفريح الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء :

لقد سبق وأن مر بنا في فضل الصدق حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة فسدت عليهم باب الغار، وكيف أن الله عزوجل أنجاهم من هذه الشدة والضائقة بفضل صدقهم مع الله عزوجل في أعمالهم التي توسلوا بها إلى الله سبحانه.

وكذلك مر بنا قصة المخلفين الثلاثة رضي الله عنهم كيف أن الله سبحانه تاب عليهم ونجاهم من الكرب الذي أصابهم بسبب صدقهم في عذرهم لرسول ﷺ وصدقهم في توبتهم، وقد جاء بعد توبتهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد أدرك كعب بن مالك رضي الله عنه - وهو أحد الثلاثة - فضل الصدق وكيف أن الله سبحانه قد نجاه بالصدق فقال: «وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، ومن توبتي إلا صدقاً ما بقيت». ويقول

الإمام ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: « أي اصدقوا والزموا الصدق، تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً »^(١).

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] ،
ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] ، والآيات
في هذا المعنى كثيرة .

أما أثر الصدق في تحقيق النصر والتمكين في الأرض فيشهد لهذا أدلة
الكتاب والسنة والحس والتجارب ، ولا يتحقق الصدق في طلب النصر
حتى يقوم العبد بالحق على نفسه وعلى غيره، ويكون قيامه بالحق لله عزوجل
ويستعين في إقامة هذا الحق بالله سبحانه ؛ فهذه ثلاث دعائم لتحقيق الصدق
في طلب النصر والفرج من الله سبحانه .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« . . . فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه
بالله والله لم يقم له شيء، ولو كادته السماوات والأرض والجبال لكفاه
الله مؤنتها، وجعل له فرجاً ومخرجاً، وإنما يؤتى العبد من تفریطه وتقصيره
في هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد، فمن كان قيامه في
باطل لم يُنصر، وإن نُصرَ نصراً عارضاً فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول،
وإن قام في حق لكن لم يقم فيه الله وإنما قام لطلب المحمّدة والشكور والجزاء
من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً والقيام في الحق

(١) تفسير ابن كثير سورة التوبة ١١٩ .

وسيلة إليه فهذا لم تضمن له النصر، فإن الله إنما ضمن النصر لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكوه كلمة الله هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه ولهواه، فإنه ليس من المتقين ولا من المحسنين، وإن نصر فبحسب ما معه من الحق، فإن الله لا ينصر إلا الحق، وإذا كانت الدولة لأهل الباطل فبحسب ما معهم من الصبر، والصبر منصور أبداً، فإن كان صاحبه محقاً كان منصوراً له العاقبة، وإن كان مُبطلاً لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله مستعيناً به متوكلاً عليه مفوضاً إليه برياً من الحول والقوة إلا به فله من الخذلان وضعف النصر بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالى عليه زمر الأعداء»^(١).

٨ - غفران الذنوب وتكفير السيئات :

مر بنا في الفقرة السابقة قصة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم، وأن صدقهم كان سبباً في توبة الله عز وجل عليهم، فالصدق في التوبة من الذنب سبب في المغفرة وتكفير السيئات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وأن التوبة النصوح التي أمر الله سبحانه عباده بها هي التوبة التي صدرت من قلب صادق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: ٨].

ولا توصف التوبة بأنها صادقة إلا بالشروط التي ذكرها العلماء لقبول التوبة وغفران الذنوب، ألا وهي الندم والإقلاع والعهد بعدم العودة إليه مع

(١) إعلام الموقعين (٢/١٧٨).

الإخلاص في ذلك لله عزوجل .

إذن فالتوبة الصادقة ثمرتها المغفرة وتكفير السيئات ، كما أن الصدق في أداء الأعمال الصالحة والإكثار من الحسنات يؤدي إلى محو السيئات وتكفيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] .

٩ - الهداية للحق دلالة وانقياداً :

يقول الله عزوجل : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، فمن هذه الآية نفهم أثر الصدق في مجاهدة النفس ابتغاء مرضاة الله عزوجل بفعل الطاعات والجهاد في سبيل الله سبحانه ، وأن ثمرة ذلك الهداية للطريق المستقيم في الدنيا والآخرة والتوفيق لمعرفة الحق واتباعه والانقياد له .

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عند هذه الآية ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ : « أي لنبصرنهم سبلنا ، أي طرفنا في الدنيا والآخرة . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبي الحواري : فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه ، وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه»^(١) اهـ .

(١) تفسير ابن كثير آية ٦٩ العنكبوت .

ويقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى : « وكلما كثرت الطاعات تراكمت الأنوار حتى يصير المطيع إلى درجات العارفين الأبرار ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ، وهذا مما يعرفه المطيعون المخلصون ، فإذا خلت الأعمال عن الإخلاص لم يزد العاملون إلا ظلمة في القلوب ، لأنهم عاصون بترك الإخلاص ، وإبطال ما أفسده الرياء والتصنع من الأعمال »^(١) .

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « فإذا اجتهد العبد في طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجح أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة . فإلهام مثل هذا دليل في حقه ، وهو أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة ، والظواهر والاستصحابات الكثيرة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذاهب والخلاف والفقهاء .

وقد قال عمر بن الخطاب : اقربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا ما يقولون ؛ فإنهم تتجلى لهم أمور صادقة . وحديث مكحول المرفوع « ما أخلص عبد العبادة لله تعالى أربعين يوماً إلا أجرى الله الحكمة على قلبه وأنطق بها لسانه » ، وفي رواية : « إلا ظهرت ينابيع الحكمة من على لسانه »^(٢) .

وقال أبو سليمان الداراني : إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ورجعت إلى أصحابها بطرف الفوائد من غير أن يؤدي إليها عالم علماً .

وقد قال النبي ﷺ : « الصلاة نور؛ والصدقة برهان؛ والصبر ضياء »^(٣) ،

(١) قواعد الأحكام ص ٤٢ ط . الطباع .

(٢) ابن أبي شيبة في مصنفه (١٦١٩١) / (١٣ / ٢٣١) ، وهو مرسل .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم ك الطهارة (٢٢٣) / (١ / ٢٠٣) .

ومن معه نور وبرهان وضياء كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية؛ فإنه يعرف ذلك معرفة تامة؛ لأنه قاصد العمل بها؛ فتتساعد في حقه هذه الأشياء مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى أن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحاً لا تصريحاً.

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها
إنارة العقل مكشوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا
وفي الحديث الصحيح: «ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها»^(١)، ومن كان توفيق الله له كذلك فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان؛ فكيف حال من الله سمعه وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود: «الإثم حواز القلوب»، وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب»^(٢).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «وإذا كان القلب معموراً بالتقوى انجلت له الأمور وانكشفت؛ بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر. وفي الحديث الصحيح: «إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كل مؤمن قارئاً وغير قارئاً»^(٣)، فدل على أن المؤمن

(١) البخاري ك الرقاق (٦٥٠٢)/فتح (٣٤٨/١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٢/٢٠).

(٣) مسلم بلفظ مقارب. ك الفتن (تحت ٢٩٣٤) / (٢٢٤٩/٤).

يتبين له ما لا يتبين لغيره؛ ولا سيما في الفتن، وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله؛ فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة ومخاريق مزلزلة، حتى أن من رآه افتتن به، فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب قوي انكشاف الأمور له؛ وعرف حقائقها من بواطنها، وكلما ضعف الإيمان ضعف الكشف، وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم؛ ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور. فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن؛ فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم؛ والظن أن هذا القول كذب؛ وأن هذا العمل باطل؛ وهذا أرجح من هذا؛ أو هذا أصوب»^(١) اهـ.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

«تكرر في القرآن جعل الأعمال القائمة بالقلب والجوارح سبب الهداية والإضلال، فيقوم بالقلب والجوارح أعمال تقتضي الهدى اقتضاء السبب لمسيبه والمؤثر لأثره، وكذلك الضلال. فأعمال البر تثمر الهدى وكلما ازداد منها ازداد هدى، وأعمال الفجور بالضد، وذلك أن الله سبحانه يحب أعمال البر فيجازي عليها الهدى والفلاح، ويبغض أعمال الفجور ويجازي عليها بالضلال والشقاء»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٤٥/١٣).

(٢) الفوائد ص ١٢٩.

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]: «فهداهم أولاً للإيمان فلما آمنوا هداهم للإيمان هداية بعد هداية، ونظير هذا قوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعز الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل»^(١) اهـ.

ويقول رحمه الله تعالى من موطن آخر:

«وكلما قرب القلب من الله زالت عنه معارضات السوء، وكان نور كشفه للحق أتم وأقوى، وكلما بعد عن الله كثرت عليه المعارضات، وضعف نور كشفه للصواب؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، يفرق به العبد بين الخطأ والصواب.

وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق»^(٢) اهـ.

والحاصل من كل ما سبق أن الصدق مع الله سبحانه وتقواه كل هذا يثمر توفيق الله عزوجل للعبد إلى الحق والصواب، وبخاصة إذا التبست الأمور

(١) الفوائد ص ١٣٠.

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٨).

وحارت العقول وكثرت الفتن كما هو الحال في زماننا هذا . فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه يا أرحم الراحمين .

١٠ - الزهد في الدنيا والتزود للآخرة :

« إن الإيمان ليس بالتحلي والتمني ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل » فالإيمان الصادق بالله عزوجل وباليوم الآخر لا بد أن يشمر العمل الصالح ، والاستعداد للرحيل والإكثار من الزاد ليوم المعاد . وهذا بدوره يحمل على الحذر من كل ما يشغل عن هذه الغاية العظمى من فتن الدنيا المختلفة ؛ فيزهد في ذلك كله ويجعلها في يده لا في قلبه، وقد مر بنا في علامات الصدق الحديث المروي عن الرسول ﷺ عندما سئل عن شرح الصدر في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] فقال ﷺ : « نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح » ، قيل فهل لذلك أمانة؟ قال : « نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت »^(١) .

وقد فصلت القول في مبحث (علامات الصدق) حول هذه المسألة وذلك ببعض النقول عن الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ؛ فليرجع إليها هناك حيث لا داعي لتكرارها .

١١ - حسن الخاتمة :

وهذه خاتمة المسك في ثمار الصدق فما أعظمها من ثمرة وما أشرفها من

(١) الحديث ذكره ابن كثير عند هذه الآية في تفسيره وقواه لتعدد طرقه ، وقد مر ص ٣١١ .

غاية، فهي التي شمر إليها المشمرون، وهي التي أقضت مضاجع الصالحين وأوجلت قلوب العارفين. فما هو السبيل إليها؟

إن أعظم سبيل إليها هو الصدق مع الله سبحانه في الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والذي يثمر بدوره الأعمال الصالحة المنبثقة من العبودية الحقة لله عز وجل.

إن الصدق وتحرية طريق إلى مرتبة الصديقية والخاتمة الحسنة الموصلة لركب الصديقين، وهذا هو ما يفهم من قوله ﷺ: «وما يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»^(١)، وهذا يفيد حسن خاتمة من صدق وتحرى الصدق؛ لأن الله عز وجل يكتبه عنده صديقاً، ولا تكون هذه المرتبة إلا لمن علم الله حسن خاتمته وأنه سيموت على الإيمان الحق. وقال النبي ﷺ: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة»^(٢). فما هو السر في حسن خاتمة من ختم كلامه بكلمة التوحيد؟

يجيب على ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى جواباً عظيم الفائدة له علاقة بالصدق في كلمة التوحيد وأثر ذلك في حسن الخاتمة فيقول:

«لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها؛ لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات، ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إباتها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضلها، واستسلمت بين يدي ربها وفاطرها ومولاها الحق، أذل ما كانت له، وأرجى

(١) سبق تخريجه

(٢) رواه أبو داود كالجائز (٣١١٦)/(٤٨٦/٣)، والحاكم ١/٣٥١، ٥٠٠، وصححه، ووافقه الذهبي.

ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقق بطلانه، فزالت منها تلك المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه، فاستسلم وحده ظاهراً وباطناً، واستوى سره وعلانيته؛ فقال لا إلا الله مخلصاً من قلبه، وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره والالتفات إلى ما سواه، قد خرجت الدنيا كلها من قلبه، وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلاً قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه وصارت الدنيا وراء ظهره؛ فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله فظهرته من ذنوبه وأدخلته على ربه؛ لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة وافق ظاهرها باطنها وسرها علانيته، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها وفر إلى الله من الناس وأنس به دون ما سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والالتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي، والله المستعان^(١) اهـ.



الخاتمة

لا يسعني في نهاية هذا البحث وقبل ختمه إلا أن أفضي ببعض الخواطر التي جالت في الذهن أثناء كتابة هذا الموضوع، وما هي إلا هموم وأشجان أبثها في صورة نصائح أخص بها نفسي بادئ ذي بدء، ثم أبعثها بعد ذلك إلى من يهمهم أمر هذا الدين من علماء وطلبة علم ودعاة ومجاهدين ومربين وإعلاميين، ومن يملكون الكلمة في هذه الأمة كل في موقعه، فأقول وبالله التوفيق:

١ - إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به ربنا عزوجل عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

يا علماء الأمة : هذه وصية الله إليكم فاقبلوها، واصدقوا مع ربكم فيما أنعم به عليكم من العلم، وأروا الأمة من أنفسكم خيراً بالعمل بما تعلمون .
واصدقوا مع عباد الله عزوجل في تعليمهم الخير وتحذيرهم من الشر؛ فإن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به .

يا علماءنا الأجلاء : يا من تعقد عليهم الأمة أملها بعد الله سبحانه في إنقاذها مما هي فيه من جهل ومحن وبلاء ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ،
وإن من لوازم الصدق مع الله سبحانه ومع عباده المؤمنين الحذر الشديد من

الدنيا وزينتها ومناصبها وزخرفها، فلا أضر على العالم منها؛ ولذا كان سلفنا الصالح يحذرونها أشد الحذر فبارك الله في علمهم وعملهم وأصلح الله بهم ما فسد.

وأسوق بهذه المناسبة كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أذكر فيه علمائي الأفاضل وإخواني من طلاب العلم بخطر الدنيا وضرورة الحذر الشديد منها، ولا شك أنه معلوم للجميع، ولا يساق التمر إلى هجر... ولكن من باب الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين: يقول رحمه الله تعالى:

«كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه وفي خبره وإلزامه؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات؛ فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً، فإذا كان العالم والحاكم محبباً للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاذه من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب وينظمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهراً لاخفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضاً:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾

وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرْضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿ [الأعراف: ١٦٩] .

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أولاً يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه .

وهؤلاء لابد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة .

فهذه آفة العلماء إذا أثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] .

فهذا مثل عالم السوء الذي عمل بخلاف علمه^(١) .

وقد ذكر الآجري رحمه الله تعالى كلاماً يجدر بكل عالم وطالب علم

أن يقرأه وذلك في كتابه القيم أخلاق العلماء، أقتطف منه المناسب للمقام هنا في التحذير من الدنيا وفتنة السلاطين فيقول:

« أخبرنا عمر بن أيوب السقطي أخبرنا الحسن بن حماد الكوفي أخبرنا أبو أسامة عن عيسى بن سنان قال: سمعت وهب بن منبه يقول لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، فكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم. فإياك وأبواب السلاطين؛ فإن عند أبوابهم فتناً كمبارك الإبل، لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله.

قال محمد بن الحسين الأجري: فإذا كان يخاف على العلماء في ذلك الزمان أن تفتنهم الدنيا فما ظنك به في زماننا هذا؟ الله المستعان ما أعظم ما قد حل بالعلماء من الفتن وهم عنه في غفلة»^(١).

يا علماء الأمة في كل مكان: هكذا كان خوف سلفنا الصالح وحذرهم الشديد من الدنيا ومن تبعة العلم وحمله الثقيل. فالله الله في أمتكم ودينكم. . اصدقوا مع ربكم في تعليم الأمة دينها، واصدقوا مع ربكم في قول الحق وإبطال الباطل، ولا تتركوا الأمة في حيرتها وضلالها.

أيها العلماء الأجلاء: إن امتنا الإسلامية تمر في هذا الزمان بساعات رهيبة ومحن عظيمة ونوازل شديدة، وهي تنتظر كلمتكم وإرشادها بالنور

(١) أخلاق العلماء ص ٦٦.

الذي تحملونه لتسير به في دياجير الظلمة التي تعيشها في هذا الزمان . . بالله عليكم لا تتركوها في حيرتها، ولا تسلموها لأعداء الملة من الكافرين والمنافقين يسировونها وفق أهوائهم ويكيدون لها كيداً. وأنتم بارك الله فيكم تعلمون ذلك كله وأن الله سبحانه سائلكم عن علمكم فيما عملتم به ف ﴿ لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

يا علماءنا الكرام ، ويا من نعقد عليهم الآمال بعد الله سبحانه :

إن الأمة تنتظر كلمتكم في قضايا كبيرة تصدعون فيها بالحق ، وتبلغونها الموقف الشرعي فهذا أملنا فيكم ووطننا بكم . وأملنا في الله عزوجل أن تلتحم صفوف المصلحين في هذه الأمة من علمائها ودعاتها ومجاهديها ليكونوا يداً واحدة في الإصلاح ومحاربة الفساد ورد شبهة المفسدين في نحورهم ، وعندئذ يزهق باطلهم ويرد كيدهم في نحورهم ﴿ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الروم: ٥] .

وأخيراً أرجو من علمائنا الأجلاء أن يقبلوا هذه المناصحات ، ولو صدرت من العبد الفقير والابن الصغير ؛ فالحق يؤخذ من كل أحد . ولكم في سيرة الإمام أحمد رحمه الله تعالى قدوة حيث استفاد في محنته من أعرابي عامي ، فقد ذكر الذهبي في السير «عن أحمد بن أبي الخوارى : حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، قال : قال أحمد بن حنبل : ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق قال : يا أحمد ، إن يقتلك الحق مت شهيداً ، وإن عشت عشت حميداً .

فقوي قلبي»^(١).

٢ - إلى دعاة الأمة ومجاهديها :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى به الله سبحانه عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

* وإن من لوازم الصدق ومقتضياته أن تكون الدعوة إلى الله عزوجل والجهاد في سبيله لأجل الله عزوجل وابتغاء مرضاته، فلا تكون لأجل مال أو منصب أو جاه أو كسب شهرة أو التعصب لشيخ أو حزب أو طائفة؛ لأن كل ذلك ذاهب وضائع وممحوق البركة في الدنيا والآخرة، فحري بنا أن نحاسب أنفسنا ونحن في طريق الدعوة والجهاد في سبيل الله. ما مدى صدقنا في دعوتنا إلى الله سبحانه؟ وهل هي خالصة لله وحده أم يشوبها ما يشوبها من أعراض الدنيا الفانية؟

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يبادر الداعية إلى تصديق قوله وما يدعو إليه بفعله، وأن لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، أو يُرغَّب في فعل ولا ينوي القيام به، أو يظهر للناس حرقة وغيرة على هذا الدين، والأمر لا يتعدى اللسان والكلام حيث القلب مشحون بأمر الدنيا وشهواتها وغارق في وديانها.

إن كل ذلك مما ينافي الصدق في الدعوة إلى الله عزوجل.

* وإن من لوازم الصدق أيضاً في الدعوة إلى الله عزوجل سلامة قلب

(١) السير للذهبي (١١/٢٤١).

الداعية من الغل والحقد والحسد على إخوانه الآخرين من الدعاة، وإنما يكن المحبة لكل مصلح يدعو إلى الخير ويتعاون معه في طاعة الله عزوجل ولا يحتقر جهده مهما قل . ولا تراه إلا حريصاً وساعياً إلى اجتماع الكلمة ووحددة الصف؛ فالداعية الصادق يكره الفرقة والاختلاف إذا لم يكن في أصول الدين وكتلياته، والدعاة الصادقون يرحم بعضهم بعضاً ويرفق بعضهم ببعض ويتناصحون بينهم .

* كما أن الصدق مع الله سبحانه في الدعوة والجهاد يفرض على المسلم أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه ويجاهد من أجله، وهذا يلزم التفقه في الدين والبصيرة فيه بما قال الله عزوجل وقال رسوله ﷺ وفهمه الصحابة الكرام رضي الله عنهم .

* وإن من لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه الحذر من كيد الأعداء المتربصين بهذا الدين وأهله من الكافرين والمنافقين، وخاصة في زماننا هذا والذي تنوعت فيه أساليب المكر والخبث، فحري بالداعية الصادق أن يتفطن لدسائس الأعداء ودجلهم ونفاقهم ولو ألبسوا ذلك كله لبوس الحكمة والمصلحة ودرء الفتن .

إن التنازل اليسير من الداعية إلى الله سبحانه لا يقف عند حد بل يتبعه تنازلات وتنازلات؛ لأن أعداء هذا الدين لا يكتفون بالقليل من الداعية، وقد حذر الله سبحانه نبيه ﷺ من هذا الخطر فقال: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٨) وَدُّوا لَوْ تَدَّهَنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿ [القلم: ٨، ٩] ، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعِ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] .

يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى :

«والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقتها الله لصاحب الدعوة الأولى ﷺ . . هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله فهو صاحبها، وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الأثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم، أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق، والقائم على الباطل .

فهما منهجان مختلفان . . وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلبه الباطل بقوته وجمعه، على قلة المؤمنين وضعفهم، لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه، والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح وهي الزاد المضمون لهذا الطريق . .

إنها حقيقة كبيرة لأبد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . . فالمحاولات كثيرة تلك التي حاولها المشركون مع رسول الله ﷺ في المساومة بالدعوة، ولكن الله عصم منها رسوله، وهي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً . محاولة إغرائهم لينحرفوا ولو قليلاً عن استقامة الدعوة وصلابتها . ويرضوا بالحل الوسط الذي يغرونهم به في مقابل مغنم كثيرة .

ومن جملة الدعاة من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً فأصحاب السلطان لا يظلمون إليه أن يترك دعوته كلياً . إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق .

وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة . فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ، ولو بالتنازل عن جانب منها . . ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق . .

وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير . وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل لا يملك أن يقف ، عندما سلم به أول مرة . لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء .

والمسألة مسألة إيمان بالدعوة كلها . فالذي ينزل عن جزء منها مهما صغر ، والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل ، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان . فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر^(١) .

* ومن لوازم الصدق في الدعوة أن يحذر الداعية من الكذب على إخوانه المسلمين والدعاة المصلحين ، ومن ذلك إشاعة الأخبار قبل التحقق من صحتها واستخدام الأساليب الملتوية والمراوغات بحجة السياسة والمصلحة ، كل هذا لا يتفق وصدق الداعية وسلامة قلبه .

* ومن لوازم الصدق في الدعوة إلى الله سبحانه أن يعتني كل منا بنفسه بالوسائل الشرعية للتربية ، وذلك في وسط بيئة صالحة معروفة بصحة الفهم وحسن القصد يتربى معها ، ويعد نفسه للتضحية في سبيل الله عزوجل وبذل

(١) طريق الدعوة (١/١٩٦) .

المال والنفس في ذلك، وأن يوطن نفسه لابتلاءات الطريق ومشاقه، والتي هي سنة من سنن الله عز وجل لتمحيص الصفوف، قال تعالى: ﴿الْم ١﴾ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] ؛ فلا يتبين الصادق في دعوته من الكاذب إلا بالابتلاء. نسأل الله عز وجل العافية والصبر عند البلاء.

إن الداعية الذي يهمل نفسه فلا يرببها ويعددها للبيع لله عز وجل يوشك أن ينهزم وتخذه نفسه عند أول هزة وأول اختبار، مع أنه يحسب نفسه غير ذلك مما يعيشه - في حال الرخاء والأمن - من الحماس العاطفي والكلام الذي لا يجاوز التراقي.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: «إن العقيدة وطريقها لشاقة بعيدة تنقصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة. إن تكليف العقيدة هو جهد خطر، تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية. ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذه دونه النفوس الصغيرة والبيئة المهزولة. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ [التوبة: ٤٢]»^(١).

وإنني بهذه المناسبة أوصي نفسي وإخواني الدعاة والمجاهدين أن لا نتكلم في أمر أو نقدم على موقف من مواقف الدعوة حتى تتوفر فيه الشروط التالية:

(١) طريق الدعوة (١/٢٥٩).

١- الاطمئنان التام أنه الحق الذي يحبه الله تعالى ، وإعداد النفس لتحمل تبعاته .

٢- الاطمئنان التام على أن القيام في هذا الأمر هو الله سبحانه وحده وابتغاء مرضاته .

٣- الاستعانة بالله وحده في تحقيق هذا الأمر والثبات عليه ؛ إذ لا قدرة للبعد لحظة واحدة بدون عون الله وتوفيقه .

وإن عدم الالتفات للشروط السابقة هو الذي يوقعنا في عدم إتمام الأمر أو التخاذل وعدم الجدية في أخذه .

إن السبب في مثل هذه المواقف - والعلم عند الله سبحانه - هو أن أحد الشروط السابقة أو أكثر قد تخلف ، فإما أن الأمر الذي أقدم عليه لم يكن مقتنعاً أنه الحق الذي يرضي الله ، أو أنه كان مقتنعاً بأنه الحق لكن قومته لم تكن لله ، أو أن استعانته بالله سبحانه في الدخول في هذا الأمر كانت ضعيفة ، أو أنه لم يوطن نفسه ويهيئها لتبعات كلمة الحق وإنما الأمر كلام فحسب .

إذن يا إخواني الدعاء: إن الأمر جد ليس بالهزل .

فإذا كنا بهذه الحالة في أمر يسير ، فكيف الحال بما هو أشد وأقسى؟!
نسأل الله عز وجل العون والثبات ، اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد .

٣ - إلى المربين في هذه الأمة :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]

أيها المربون من آباء وأمهات ومعلمين وموجهين إن المسؤولية عظيمة والأمانة جسيمة .

وإن الصدق مع الله عز وجل يستلزم أن تكونوا قدوات صالحة لمن ولاكم الله تربيته وتعليمه، فمعلوم أثر القدوة في التربية وأنها تفعل ما لا يفعله كثير من وسائل التربية الأخرى، وإن الصدق في الإيمان بالله عز وجل والالتزام بأخلاق هذا الدين العظيم والدعوة إلى الله سبحانه، كل ذلك له أثره العظيم في تربية الأجيال وتعريفهم برسالة أمتهم التي ينتمون إليها والعقيدة التي يجتمعون عليها .

إن التربية لها معنى أوسع من التعليم وتلقين المعلومات؛ فالتربية هي الجهد الذي يبذله المربون في كل مجتمع من آباء ومعلمين وغيرهم في إنشاء الأجيال القادمة على أساس العقيدة التي يؤمنون بها، ومنحهم الفرصة الكافية لتشرب معاني الدين والتضحية من أجله والاعتزاز به بين الأمم . فالأمة الجادة هي التي تربي أبناءها طبقاً للعقيدة التي تدين بها الله تعالى وتسعى لنشرها بين الأمم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله تعالى، وهذه مهمة المربين في هذه الأمة فما أثقلها من تبعة وما أشرفها من رسالة .

* ومن لوازم الصدق أيها المربون الكرام أن تصدقوا مع من ولاكم الله

تربيتهم وتعليمهم؛ وذلك بتعليمهم الخير وربطهم بأبطال هذه الأمة ورعيها الكرام، وتحذيرهم من الشر وأهله وتبصيرهم بسبيل المجرمين وأفكارهم الخبيثة وتفنيدها والتحذير منها.

* ومن لوازم الصدق في التربية إعداد المناهج الكريمة المستمدة من الكتاب والسنة وفهم الصحابة وفقه الواقع الذي تعيشه الأمة، فعلى المسؤولين عن مناهج التعليم في المجتمعات المسلمة أمانة عظيمة وتبعة ثقيلة فليصدقوا مع الله عزوجل في أمة محمد ﷺ وأبنائها، فلا يختاروا إلا ما فيه الخير والإصلاح وتنشئة الأجيال على العقيدة العظيمة لهذا الدين وأخلاقه السامقة. وأن يردوا ويُسقطوا كل ما من شأنه إفساد العقيدة والأخلاق والأفكار والهمم؛ فنحن أمة ذات رسالة عظيمة خالدة ينبغي للناشئة أن يدركوا رسالة أمتهم وأنها خير أمة أخرجت للناس؛ لتتقدهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

أيها المربون من آباء ومعلمين: إن الله سبحانه سائلكم عما استرعاكم فأعدوا للسؤال جواباً ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وتذكروا أثر العمل الطيب والسنة الحسنة حين تسري في الأمة وينتشر الخير بسببها وتنالون أجر ذلك من كل من تأثر به، والعكس من ذلك والعياذ بالله، تذكروا أثر العمل السيئ والسنة السيئة حين تسري في أبناء الأمة ويتربون عليها فتنالون وزر ذلك ووزر من تأثر به نعيذكم بالله من هذا المآل. وهذا مصداق قوله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن سنة سيئة كان

عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١).

* ومن لوازم الصدق في التربية: أن يُربط الأبناء والطلاب في حياتهم بالأهداف العالية النبيلة ولا يربطون بالتوافه من الأمور والأهداف الهابطة؛ لأن النظرة السائدة اليوم في أكثر بيوت المسلمين ومدارسهم أن طلب العلم قد ربط بالمصلحة الدنيوية وأنه وسيلة للعيش، ولا يوجد في جو المنزل أو جو المدرسة - إلا من رحم الله - من يقول للمتربي: إن لك أمة تنتظرك، وإن لك دوراً ينتظرك في الدعوة إلى التوحيد وهداية الناس بإذن الله تعالى والجهاد في سبيله عزوجل والذود عن حمى الأمة وعقيدتها.

إن هذا النوع من التربية قليل، فعلى المرين الصادقين مع ربهم سبحانه أن يحيوا هذه المعاني عند إخوانهم المرين، ويصبغوا بها المناهج المعدة لذلك، وينشروها في صفوف أبنائهم وطلابهم حتى يخرج جيل قوي متماسك يشعر بانتمائه لهذا الدين ويشعر بمسؤوليته؛ ليتولى هو بدوره إكمال الطريق وتربية الأجيال التي تأتي بعد ذلك.

* وبقيت كلمة أخيرة أوصي بها نفسي وإخواني الآباء، ألا وهي الصدق مع الله سبحانه في جعل البيت محضناً من محاضن التربية الكريمة للأبناء والبنات والإخوان والأخوات والزوجات؛ وذلك بعمارته بذكر الله عزوجل ووجود القدوات الصالحة وتطهيره من أسباب الرجس والفساد ف«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

إن العجب كل العجب من أناس أنعم الله عليهم بنعمة الأموال والأولاد،

(١) مسلمك الزكاة (١٠١٧) / (٢) / (٧٠٥).

ثم هم يخربون بيوتهم بأيديهم ويلقون بأنفسهم وأهليهم إلى النار، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

إن أحدنا لو رأى ابنه أو بنته أو أخاه أو أخته أو زوجته يتعرض أحدهم لهلاك في الدنيا بحريق أو غرق أو سقوط من عل لهباً مسرعاً لإنقاذه، وإن لم يكن قريباً منه صاح به محذراً من السقوط في المهلكة.

وإن الله سبحانه يحذرنا من نار تلظى لا تأتي نار الدنيا عندها إلا جزءاً من سبعين جزءاً منها، ومع ذلك لا يتحرك الكثير منا في إنقاذ نفسه وأهله منها ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، والأعجب من ذلك أن ترى بعض الظالمين لأنفسهم وأهليهم يجلب النار بنفسه ليحرق بها بيته وأهله؛ فامتلات أكثر بيوت المسلمين بأجهزة الفساد من أغان هابطة وأفلام ماجنة ومجلات عارية وقصص سافلة.

فهذه والله هي الخيانة وتضييع الأمانة، وهذا والله مما ينافي الصدق مع الله سبحانه في أداء الأمانة ورعاية العهود. وما يدري المسكين أنه لو مات على هذه الحالة فإنه يموت غاشياً لمن استرعاه الله من رعيته؛ لأنه بهذه الحالة يصدق عليه قول الرسول ﷺ: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة»^(١).

ثم ألا يشعر هذا الظالم لنفسه ولرعيته أن وزر ما جلبه لبيته من آلات اللهو والفساد يبقى يتابعه ويحمله على ظهره في قبره ويوم القيام لرب

(١) البخاريك الأحكام (٧١٥١)/فتح (١٣٦/١٣) بلفظ مقارب، ومسلمك الإيمان (١٤٢)/ (١٢٥/١) واللفظ له.

العالمين، وذلك بقدر ما أفسدت هذه الأمور في نفوس أبنائه وأهله من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً. ألا فلنح خطورة هذا الأمر وأنه جد عظيم، وأنه خيانة لله ولرسوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أسأل الله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من الصادقين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

اللهم إنا نسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد.

٤ - إلى الإعلاميين في هذه الأمة :

أوصي نفسي وإياكم بما أوصى الله سبحانه به عباده المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

أيها المؤمنون من إعلاميي هذه الأمة: إني أخاطب فيكم عقيدتكم الإسلامية التي تحملونها بين جوانحكُم والتي تحدد هويتكم بين بني البشر وترفع رؤوسكم بين بني الإنسان، أخاطب فيكم غيرتكم الإسلامية ومروءاتكم العربية وأخلاقكم العريقة التي تميز المسلم عن غيره، أخاطب فيكم الأمانة العظيمة التي حملكم الله إياها من خلال مسؤولياتكم الخطيرة التي أنتم فيها، أخاطب فيكم المسؤولية التي أناطتها الأمة بكم لتربوا أبناءها على الإيمان الصادق والعفة والطهارة والعزة والكرامة.

أيها الإعلاميون المؤمنون على عقيدة الأمة وأخلاقها: اصدقوا مع ربكم سبحانه في الوفاء له بما عهد إليكم ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ

مَسْئُولًا ﴿ [الإسراء: ٣٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧] ، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

واصدقوا مع أمتكم المسلمة التي أمنتكم على دينها وأعراضها وعقولها
وأفكارها؛ فلا تخونوا أمتكم وكونوا عند حسن ظنها بكم.

إن إعلام أية أمة يعبر عن عقيدتها وهويتها، وإذا أردنا أخذ صورة
سريعة عن أي أمة أو مجتمع فلننظر إلى إذاعتها وتلفازها وصحفها وما ينشر
فيها؛ فإن ذلك يدلنا على ما يقوم عليه هذا المجتمع من عقيدة وأخلاق.

إن لكل أمة هوية، فأين هويتنا الإسلامية في إعلامنا؟! إن الإسلام ليس
كلمة فحسب، وليس عقيدة مستترة في القلب فحسب، بل الإسلام هو
الاستسلام لله عزوجل وحده في جميع شئون الحياة. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ
وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾
[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

هذا هو الإسلام الذي جاء من عند الله عزوجل، وإن الناظر في إعلام
المجتمعات المسلمة اليوم لياأخذه الدوار والعجب وهو يرى التناقض الخطير
والفصام النكد بين الهوية الإسلامية للقائمين عليه وبين ما يفرزه للمجتمع
ويربى عليه الأمة من قلب للحقائق، وترويض للنفوس على النفاق والكذب

وتشرب الفساد والردائل ، وقتل لمعاني العقيدة الشاملة المستلزمة للإذعان التام لله سبحانه في كافة أحوال العبد وكافة شئون المجتمع .

فماذا يعني هذا التناقض وهذه الازدواجية؟ إنه يعني أحد أمرين :

١ - إما أن يكون هناك جهل بحقيقة هذا الدين ويظن أنه بالإمكان أن يكون المرء مسلماً بقلبه ولسانه فقط ثم يفعل بعد ذلك ما يشاء ويعمل ما يحلو له أن يعمل مادام أنه ينطق الشهادتين والهوية التي يحملها هي الإسلام!! وهذه عقيدة المرجئة التي أفسدت في الأرض ودخل من خلالها العلمانيون الذين يفصلون الدين عن الحياة ويجعلونه عقيدة مستكنة في الضمير وبين جدران المساجد فحسب!!

٢ - أو أن حقيقة الدين ومفهومه الواسع واضحة في أذهان القوم ولكنهم آثروا الحياة الدنيا ومناصبها وزخرفها على مرضاة الله سبحانه والدار الآخرة؛ فاشتروا الحياة الدنيا الخسيسة الفانية بالدار الآخرة الباقية، فما أشد خسارتهم وأكسد تجارتهم . ألا ذلك هو الخسران المبين .

وسواء كان الأمر الأول أو الثاني فيني أناشد كل إعلامي ينتسب إلى هذه الأمة المسلمة وقد ابتلاه الله عزوجل بمسؤولية ما في هذا المضمار؛ أناشده بأن يصدق مع ربه سبحانه وأن يعد للموقف الرهيب بين يدي الله عزوجل عدته؛ فإن الله سائله عن هذه الأمانة . نعم إن الله سيسأله عن أديان الناس وأنفسهم وعقولهم وأعراضهم ماذا فعل بها من خلال مسؤوليته . .

نعم ليتذكر هذا الموقف العصيب الذي سيقف فيه عارياً من كل شيء ، عاري الجسد وعاري الضمير وعاري التاريخ سيقف فرداً ليس معه رئيسه ولا

مرءوسه ولا والده ولا ولده ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

فماذا سيكون الجواب؟ نعم ماذا سيكون جوابك إذا حاکمتك الأمة بأسرها على ما قدمت لها من كلمة مسموعة أو مرئية أو مقروءة كانت سبباً في إضلال أبنائها؟! أناشدك بما معك من الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا تغفل عن هذا اليوم الرهيب، فوالله إنه لقريب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿ [الشورى: ١٧، ١٨] .

وبعد :

هذا ما يسر الله سبحانه كتابته حول هذا الموضوع عسى الله أن ينفع به كاتبه وقارائه في الدنيا والآخرة، وأطلب من الإخوان الذي يتفضلون بقراءة هذا البحث أن لا ينسوني من نصائحهم وتوجيهاتهم جزى الله الجميع خيراً .

« فيا أيها القارئ والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة يسوقها إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك دعاء، فلا يعدم منك عذراً، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح، وقد:

قد استأثر الله بالثناء وبالـ الحمد وولى الملامة الرجلا»^(١)

«وما كان في هذا البحث من حق وصواب فمن الله تعالى هو المان به فإن التوفيق بيده، وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه

(١) من مقدمة طريق الهجرتين للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).

براء^(١).

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ،
عالم الغيب والشهادة ؛ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنا
لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .
اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ، واجعلها لوجهك خالصة ، ولا تجعل لأحد
فيها شيئاً .

اللهم اهدنا صراطك المستقيم ؛ صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .



(١) من مقدمة طريق الهجرة للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى (بتصرف).

الرسالة السابعة

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

[البقرة : ٤٢]

عبد الغني بن ناصر المجليل

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن الله عز وجل قد خلق الخلق من الجن والإنس لغاية عظيمة شريفة ألا وهي عبادته سبحانه وتوحيده والإخلاص له وحده لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦].

ومن أجل ذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وزود عباده بالعقول التي تميز الخير من الشر، والحق من الباطل، وتكفل سبحانه بالعون والتوفيق لمن أراد الهدى والحق، فدلّه عليه، ورزقه الانقياد له، وتخلّى عمن أعرض عن الحق فلم يقبل به، ولم يستسلم ويخضع له، وكل هذا من الابتلاء الذي خلق الله سبحانه الموت والحياة من أجله، قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢].

وانقسم الناس إثر ذلك إلى مؤمنين موحدين مدركين للغاية التي من أجلها خلقوا، فصارت دوافعهم كلها في مرضات الله سبحانه، وسخروا كل ما آتاهم الله من هذه الدنيا لخدمة هذه الغاية الشريفة لنيل مرضات الله

سبحانه وتعالى ، فعملوا للآخرة والفوز برضوان الله والجنة .

ومن الناس من أمضى حياته في اللهو واللعب وإيثار الحياة الدنيا ، وجعل هذه الدنيا همه وغايته واتبع هواه فحسر الدنيا والآخرة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

ثم إن الفئة المؤمنة لم تسلم كذلك من الفتن ، وكيف يكون ذلك وعدوها الشيطان الرجيم متربص بها لا يفتؤ يضلها ويزين لها ويخدعها ؛ يقول الله عز وجل عن إبليس اللعين : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ ، ١٧] .

وقال تعالى عنه : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ ، ٤٠] .

وإن من أعظم الفتن التي يفتن الشيطان بها العباد ، فتنة التزيين ولبس الحق بالباطل واتباع الهوى في ذلك ، ولقد وقع في هذا الشرك الخطير كثير من الناس وبخاصة في زماننا هذا ؛ زمان الفتن التي تموج موج البحر ، وزمان الخداع والنفاق والدجل والرياء !

نعم إننا في زمان اشتدت فيه غربة الإسلام ، والتبس فيه الحق بالباطل ، وضل كثير من الناس ، وتمكن الشيطان من كثير من الناس تمكناً يظنون معه أنهم بمنأى عن عدوهم الشيطان ، وعلى صلة وثيقة بربهم سبحانه ، وما ذلك إلا بسبب التباس الحق بالباطل ، والعلم بالجهل ، والحبيب بالعدو .

وتعاون شياطين الجن والإنس ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ، فتعاونوا في وضع هذا التلبيس في قوالب من الأقوال مزخرفة ، وألفاظ خادعة ، وتسمية للأشياء بغير مسمياتها ؛ فضلاً بسبب ذلك كثير من الناس ، والعاقل منهم وقف حائراً لا يدري أين وجه الحق فيما يسمع ويرى من التناقضات وتبرير المواقف المخالفة للشريعة بسبب استيلاء الهوى على النفوس ، واستيلاء الشهوات على القلوب .

ولما كان من غير المستطاع المجاهرة برد الشريعة ورفضها ، فكان لابد لهم من ليّ أعناق النصوص من الآيات والأحاديث ؛ لتبرير تلك المواقف المنحرفة ، وهي ليست لها ، ولو أن الذي يقع في الانحراف يعترف بذنبه وخطئه وضعفه في مخالفة الشريعة ؛ لكان الأمر أهون .

وكذلك لو أنه استدل بدليل في غير محله ولما نُبّه إلى هذا الخطأ في الاستدلال رجع واعترف لكان هذا أيضاً أهون ، ولكن المصيبة أن يصرّ هذا المؤول الذي حرّف الأدلة على باطله ليجد لعمله مخرجاً وشرعية ؛ فيكابّر بعد بيان الحق له ، ويغالط نفسه والمسلمين بصنيعه هذا .

وإننا في زماننا هذا لنرى صوراً كثيرة من لبس الحق بالباطل ، وصوراً كثيرة من المغالطات والخداع والحيل المحرمة المفتراة على شرع الله عز وجل ، فكان لزاماً على الدعاة المصلحين أن يحذروا بأنفسهم من الوقوع في هذا المزلق ، وأن يكشفوه للناس إذا وقع من غيرهم ولا يدعوهم لأهل الأهواء يلبسون عليهم دينهم ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ومعلوم ما ينتج عن ذلك من الفتن والتضليل .

من أجل ذلك جاءت هذه الرسالة الجديدة من رسائل وقفات تربوية في

ضوء القرآن الكريم ؛ لمعالجة هذا الموضوع المهم ، وقد اخترت عنواناً لها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ ، وهي جزء من آيتين كريمتين : وردت إحداهما في سورة البقرة ، آية (٤٢) ، عند قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، والأخرى في سورة آل عمران ، آية (٧١) عند قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وهاتان الآيتان وإن كانتا قد نزلتا في أهل الكتاب ؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر عند أهل الأصول ، فكل من كتم الحق وخلطه بالباطل وهو يعلم فهو من أهل هذه الآية .

ولذلك سوف لا أتطرق لمحاولات أهل الكتاب ولا أصحاب الملل الكافرة في لبس الحق بالباطل ومغالطاتهم في ذلك ، وإنما سينصب جلّ البحث على واقعنا المسلم الذي نعيش فيه وندعو إلى الله فيه ، محاولاً كشف بعض الصور التي التبس فيها الحق بالباطل ، والتي يقع فيها بعض المنتسبين لهذا الدين من المنافقين وضعاف الإيمان لتبرير الانحراف أو التهوين منه والرضا به وإقراره ، بل إن بعض الطيبين من دعاة وطلاب علم قد تأثروا بأولئك الملبسين ؛ فصاروا يرددون بعض ما يقولون بعلم أو بغير علم .

وقد قسمت الموضوع إلى المباحث التالية :

- ١- أهمية الموضوع .
- ٢- تعريفات .
- ٣- أسباب التباس الحق بالباطل .

- ٤ - صور من لبس الحق بالباطل .
 - ٥ - الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل .
 - ٦ - خاتمة .
- أسأل الله عز وجل أن ينفع به ويحسن القصد فيه ، إنه سميع مجيب .



المبحث الأول

أهمية الموضوع

إن لدراسة موضوع التباس الحق بالباطل أهمية كبيرة؛ لما ينتج عن هذا التلبس من خلط وضلال وفتنة، يكون لها الأثر السيئ والضرر البالغ في تضليل الأمة، وتحريف الحقائق، وتزوير الأحداث .
وإن أهمية هذا الموضوع تكمن في أمور منها :

١ - من المعلوم أن القيام بالعبودية الحققة لله عز وجل لا تتم إلا بالإخلاص له سبحانه في عبادته ، وأن تكون العبادة على بصيرة واتباع لما جاء به الرسول ﷺ ، وإن البصيرة في الدين لا تتحقق ما دام الباطل ملتبساً بالحق ، وبمعنى آخر ؛ فإن البصيرة في الدين لا تحصل إلا بوضوح الحق وتنقيته من الباطل الملتبس به ، قال تعالى : ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس: ٣٢] .

لذا كان لزاماً على العبد أن يعرف الحق بدليله ما أمكن، وأن يزيل عنه الباطل الذي علق به ، وذلك حتى يأتي بالعبادة على وجهها المقبول عند الله عز وجل .

٢ - كثرة اللبس والتضليل في عصرنا الحاضر ؛ حيث ظهرت وسائل مأكرة ومضللة لبست على الناس دينهم وخلطت الحق بالباطل ، بل وصل الأمر لدرجة قلب الحقائق، وإظهار الحق في صورة الباطل ، والباطل في

صورة الحق ، وبالذات ما تقوم به وسائل الإعلام المختلفة في ديار المسلمين من إذاعة وتلفاز وكتاب ومجلة . . . إلخ ، وما تمكربه في الليل والنهار في محاولة لطمس الحق وتشويهه ، وتشويه حملته والداعين إليه ، فكان لا بد من إزالة هذا اللبس الذي خيم على الأمة ، وكان لا بد من إحقاق الحق وإبطال الباطل بقدر الجهد المستطاع ، والاستعانة بالله عز وجل في ذلك ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال : ٨] .

٣- وفي مقابل هذه الكثرة الكاثرة من تلبيس الحقائق وخلطها بالباطل ، كان هناك سكوت مزعج من كثير من العلماء وطلبة العلم في ديار المسلمين أمام كثير من المستجدات والنوازل التي تبحث الأمة عن الموقف الشرعي إزاءها ، وعن وجه الحق فيها ، ووقفت حائرة تنتظر كلام أهل العلم فيها ، فلم تسمع لهم حساً ، وتلقفها أصحاب القلوب المريضة في غيبة العلماء فلبسوا عليها أمرها ، وتكلمت الروييضات في أمر العامة ، فلبسوا الحق بالباطل ، فإلى الله المشتكى مما حل بأمتنا، وعلماءؤها يعيشون بين ظهرائها .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

وياليت الأمر وقف عند حد السكوت ، بل قد وجدنا من بعض المنتسبين للعلم من يسهم في هذا التلبيس بنفسه ، والله أعلم بقصده وبنيته ، فتراه يسمي الأمور بغير مسمياتها ، وينزل النوازل في غير مناطاتها ، بل قد يثني على المبطلين المضللين مما يظهرهم في أعين الناس والعامة أهل حق وإصلاح .

وفي نفس الوقت يوجه سهامه وعداوته للصالحين المصلحين المجاهدين من أبناء هذه الأمة الذين أقلقهم حال أمتهم الذي يرثى له ، وأقض

مضاجعهم ضياع الحق بين جهل العامة وعجز العلماء ، فأوا أن الأمر أصبح فرض عين ولا خيار فيه ، فقالوا كلمة الحق وأخذوا في تعرية الباطل وتمييزه من الحق ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧] .

ولأن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فإن الشيطان أجلب عليهم بخيله ورجله ، بل قد أوقع بعض الطيبين في شركه ؛ فأغراهم بهؤلاء المصلحين وصورهم في أعين الناس أنهم دعاة فتنة وبلبله وإرهاب ، وهذه سنة الله عز وجل في أنبيائه ودعاته المصلحين ، نسأل الله عز وجل الهداية للملبسين المخذلين ، كما نسأله سبحانه الثبات للمصلحين المجاهدين .

٤ - لا بد من تعرية الباطل وأهله ، وما دام أن الحق مختلط بالباطل وسبيل المجرمين لم يتميز عن سبيل المؤمنين ؛ فإن أمر هذا الدين سيبقى مشوهاً عند الناس ، وسيبقى الالتباس فيه قائماً ، مما يؤدي إلى ظهور الحق في صورة الباطل ، والباطل في صورة الحق ؛ عياداً بالله من ذلك .

كما أن استبانة سبيل المجرمين ومناهجهم تساعد في تميز الصف المؤمن وتنقيته من شوائب النفاق والمنافقين ، وهذا أمر مهم وعامل أساس لإظهار الحق وإزهاق الباطل : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٤] ، والناس في معرفة الحق والباطل واستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين يتفاوتون تفاوتاً كبيراً يوضح هذا التفاوت الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥] ، حيث يقول :

« والناس في هذا الموضوع أربع فرق :

الأولى : من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل
علماء وعملًا ؛ وهؤلاء أعلم الخلق .

الفرقة الثانية : من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام ، وهؤلاء
بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك .

الفرقة الثالثة : من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها ؛
فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة ، وأن كل ما خالف سبيل
المؤمنين فهو باطل ، وإن لم يتصوره على التفصيل ، بل إذا سمع شيئاً مما
خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه
بطلانه ، وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات ، فلم تخطر بقلبه
ولم تدعه إليها نفسه ، بخلاف الفرقة الأولى فإنهم يعرفونها ، وتميل إليها
نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى :

الفرقة الرابعة : فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة وسبيل
المؤمنين مجملة ، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل
البدع ؛ فعرفها على التفصيل ، ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك ، بل
عرفه معرفة مجملة ، وإن تفصلت له في بعض الأشياء ، ومن تأمل كتبهم
رأى ذلك عياناً ، وكذلك من كان عارفاً بطرق الشر والظلم والفساد على
التفصيل سالكاً لها إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار ، يكون علمه بها
مجملاً غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تعرفها
وسلوكتها .

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض ، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك ، وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله؛ من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته ، وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها ، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه ، والله أعلم^(١) .

٥ - تترس الطواغيت ودعاة العلمنة والتحرر من الدين في بلدان المسلمين ببعض الشبه الشرعية ، والتي يلبسون بها على الناس في تبرير فسادهم وإضفاء الشرعية على ظلمهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿ . [البقرة: ١١ ، ١٢]

وكذلك بما يقومون به من تشويه لصورة المصلحين في هذه الأمة ، وأنهم دعاة فتنة وأغراض شخصية ودعاة إرهاب وقلق ، كل ذلك من لبس الحق بالباطل الذي ينبغي كشفه وتعريته ، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى .

٦ - ظهور بعض المغالطات عند كثير منا واستخدامها في تبرير المواقف الخاطئة ، والمخالفات الشرعية - سواء كانت فردية أم جماعية - ينبثق عنها مواقف وممارسات خاطئة تلبس على الناس أمرهم ويحسبون أنها الحق ؛ لأنها تصدر من أناس طيبين ودعاة صالحين .

(١) الفوائد ١٠٩-١١١ .

ومنشؤ هذه المغالطات في الغالب شهوة مُزجت بشبهة فتولد عنها مغالطة، وسيأتي تفصيل ذلك في مبحث قادم إن شاء الله تعالى .



البحث الثاني تعريفات

يحسن بنا قبل الدخول في ثنايا الموضوع أن نلم بتعريفات عامة لبعض المصطلحات التي ينطلق منها هذا البحث ، والتي سيكثر إيرادها في صلب الموضوع ، وأهمها ما يلي :

١ - اللبس والتلبيس .

٢ - الأغاليط (المغالطات) .

أولاً : تعريف اللبس والتلبيس :

قال في لسان العرب : اللَّبْسُ والتلبيس : اختلاط الأمر . لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس ، إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته . والتبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه .

والتلبيس : كالتدليس والتخليط ؛ شدد للمبالغة ، وربما شدد للتكثير .

يقال : لبستُ الأمر على القوم ألبسُهُ لبساً ، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلاً^(١) اهـ . باختصار .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : « التلبيس : إظهار الباطل في صورة الحق »^(١) اهـ .

(١) تلبيس إبليس ص ٣٦ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند هذه الآية : « فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به ، لزم أن يكتم الحق الذي يبين أنه باطل ؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»^(١) اهـ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية أيضاً :

« نهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر ، ومنه التلبيس ، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره ؛ فكذلك الحق إذا لبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق ، وتكلم بلفظ له معنيان : معنى صحيح ، ومعنى باطل ، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ، ومراده الباطل ، فهذا من الإجمال في اللفظ»^(٢) اهـ .

وقال الرازي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ :

« أمر بترك الإغواء والإضلال . واعلم أن إضلال الغير لا يحصل إلا بطريقتين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها ، فقوله : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إشارة إلى القسم الأول وهو تشويش الدلائل عليه ، وقوله :

(١) مجموع الفتاوى (١٩٤/١٩) .

(٢) الصواعق المرسله (٣/٩٢٦) .

﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ ﴾ إشارة إلى القسم الثاني وهو منعه من الوصول إلى الدلائل . واعلم أن الأظهر في الباء التي في قوله : ﴿ بِالْبَاطِلِ ﴾ أنها باء الاستعانة كالتي في قولك : كتبت بالقلم .

والمعنى : ولا تلبسوا الحق بسبب الشبهات التي توردها على السامعين ؛ وذلك لأن النصوص الواردة في التوراة والإنجيل في أمر محمد عليكم كانت نصوصاً خفية يحتاج في معرفتها إلى الاستدلال ، ثم بأنهم كانوا يجادلون فيها ويشوشون وجه الدلالة على المتأملين فيها بسبب إلقاء الشبهات ؛ فهذا هو المراد بقوله : ﴿ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ وهو المذكور في قوله : ﴿ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ [غافر: ٥] .

أما قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تعلمون ما في إضلال الخلق من الضرر العظيم العائد عليكم يوم القيامة ؛ وذلك لأن ذلك التلبس صار صارفاً للخلق عن قبول الحق إلى يوم القيامة ، وداعياً لهم إلى الاستمرار على الباطل إلى يوم القيامة ، ولا شك في أن موقعه عظيم ، وهذا الخطاب وإن ورد فيهم فهو تنبيه لسائر الخلق وتحذير من مثله ، فصار الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة لكنه عام في المعنى^(١) اهـ .

ثانياً : تعريف الأغاليط « المغالطات » :

قال في لسان العرب : « المَغْلَطَةُ والأغلوطة : ما يغالط به من المسائل ، والجمع : الأغاليط ، وفي الحديث أنه ﷺ نهى عن الأغلوطات . قال الهروي : وأراد بها المسائل التي يُغَالِطُ بها العلماءُ ليزلوا فيهيح بذلك شر

(١) التفسير الكبير (٣/٤٠ ، ٤١) .

وفتنة ، وإنما نهى عنها لأنها غير نافعة في الدين ، ولا تكاد تكون إلا فيما لا يقع . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه : « أنذرتكم صعب المنطق » يريد المسائل الدقيقة الغامضة « اهـ .

وقد أخرج أبو داود رحمه الله في سننه عن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى عن الأغلوطات^(١) .

وقد ضعف الألباني الحديث ، وقال في شرح الأغلوطات : بأنها المسائل التي يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فتهيج بذلك الشر والفتنة^(٢) .

وروى الإمامان : البخاري ومسلم حديث حذيفة المشهور في الفتن ، وفيه قول حذيفة : « إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط »^(٣) .

قال في الشرح : الأغاليط : جمع أغلوطة ، وهي المسائل التي يغلط فيها ، والأحاديث التي تذكر للتكذيب .

ونقل الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في جامع العلوم والحكم عند شرحه للحديث التاسع من أحاديث الأربعين النووية قوله :

« وقال الحسن البصري : شر عباد الله الذين يتبعون شرار المسائل يعمون بها عباد الله .

(١) أخرجه أبو داود - كتاب العلم (٨) ، باب التوقي في الفتيا (٣٦٥٦) (٤/٦٥) ، وأحمد في المسند (٤٣٥/٥) .

(٢) انظر تمام المنة ص ٤٥ ، وضعيف أبي داود رقم ٧٩١ ، ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخاري - كتاب المواقيت (٤) ، باب : الصبر كفارة (ح ٥٢٥) [فتح الباري : ١١/٢] ، وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان (٦٥) ، باب : بيان أن الإسلام بدأ غريباً ... (ح ١٤٤) (١/١٢٨) .

وقال الأوزاعي : إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط ، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة فإن غُيِّرَ يوماً قيل : هذا منكر ، قالوا : ومتى ذلك ، قال : إذا قلت أمتاؤكم ، وكثرت أمراؤكم ، وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم ، وتُفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة»^(١) اهـ .

والحاصل مما ذكر أن المغاليط أو المغالطات هي التي يثيرها المغالطون من صعاب المسائل ، أو المسائل التي لم تقع ولا يترتب عليها عمل ؛ وذلك ليغالطوا بها العلماء ليزلوا فيعموا بها العباد ، ويهيج من ذلك شر وفتنة وتلبس على الناس .



(١) جامع العلوم والحكم ص ١٤٢ .



المبحث الثالث

أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل

إن الانحراف عن الحق والوقوع فيما يضاده لا تعدو أسبابه الفتن التالية :

- ١ - فتنة الشبهات .
- ٢ - فتنة الشهوات .
- ٣ - فتنة الجمع بين الشبهة والشهوة « لبس الحق بالباطل » .

وكل انحراف أو ضلال أو خطأ - صغيراً كان أو كبيراً - لا يخرج في دوافعه عن الأسباب السابقة ؛ فإذا وقع العبد في مخالفة شرعية ، فإما أن يكون السبب في هذه المخالفة هو الجهل بها ، وعدم العلم بحرماتها أو اشتبه الأمر عليه فحسبها مكروهة فقط ؛ فهذا الخطأ سببه الشبهة الناتجة عن قلة العلم ، وضعف البصيرة .

وأما إذا كان لدى العبد الواقع في المخالفة علم وبصيرة من دين الله أنها محرمة ومخالفة للشرع ، ومع ذلك وقع فيها عمداً ، فإن السبب الدافع لهذه المخالفة إنما هو الشهوة وضعف النفس ، ومثل هذا يقرّ ويعترف بمخالفته ومجانبته للصواب كما يعترف بذنبه وتقصيره .

وهناك شخص آخر قد لا يعترف بذنبه وتقصيره وإنما نراه وقد راح يبحث عن شبهة في دليل وتفسير خاطئ ، أو تأويل متعسف للأدلة ليبرر بها

خطأه ، ويمرر بها ضعفه وشهوته مع علمه بخطأ تصرفه هذا في قرارة نفسه ، فهذا هو الهوى ، وهذه هي المغالطة ، وهذا هو لبس الحق بالباطل ، وهو أشنع أنواع الانحراف ؛ لأنه مكر وتحايل على شرع الله وخداع للناس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفتنة نوعان : النوع الأول فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات . وقد يجتمعان للعبد ، وقد ينفرد بإحدهما .

فتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولاسيما إذا اقترن بذلك فسادُ القصد ، وحصولُ الهوى ، فهناك الفتنة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سبب القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله ﷺ ، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ .

[النجم: ٢٣]

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله ، فقال : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] .

وهذه الفتنة مألها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من

حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى في البصيرة وفساد في الإرادة .

وأما النوع الثاني من الفتنة : ففتنة الشهوات :

وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٩] ، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها . والخلاق هو النَّصِيبُ المقدر ، ثم قال : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فهذا الخوض بالباطل ، وهو الشبهات .

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان ، من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل ؛ لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به ، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني : من جهة الشهوات ، ولهذا كان السلف يقولون : احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه^(١) .

وإن أشد وأشر هذه الفتن من جمع بين الشبهة والشهوة ، وتحايل على شرع الله بأن غطى مخالفته وانحرافه بتأويل غير سائغ أو بشبهة دليل ، وهو يعلم أنه متحايل ومخادع .

ومثل هؤلاء الملبسين عقوبتهم عند الله عز وجل أشد من الذين يقعون في

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٦٥-١٦٦) .

المخالفات الشرعية ، ولكنهم يعترفون بتقصيرهم وذنوبهم ولا يكابرون ويبررون ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كلامه عن تحريم الحيل ، وكيف أن اليهود تحايّلوا على الصيد يوم السبت ، فقال :

« قال شيخنا^(١) : وهؤلاء لم يكفروا بالتوراة وبموسى ، وإنما فعلوا ذلك تأويلاً واحتيالاً ظاهره ظاهر الاتقاء ، وحقيقته حقيقة الاعتداء ، ولهذا - والله أعلم - مسخوا قرده ؛ لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه ، وهو مخالف له في الحد والحقيقة .

فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته ؛ مسخهم الله قرده تشبه الإنسان في بعض ظاهره دون الحقيقة ، جزاءً وفاقاً .

ويقوي ذلك أن بني إسرائيل أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل ، وهو أعظم من أكل الصيد في يوم بعينه ، ولم يعاقب أولئك بالمسح كما عوقب به من استحل الحرام بالحيلة ؛ لأن هؤلاء لما كانوا أعظم جرماً كانت عقوبتهم أعظم ، فإنهم بمنزلة المنافقين ؛ يفعلون ما يفعلون ولا يعترفون بالذنب ، بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم ، بخلاف من أكل الربا وأموال الناس بالباطل والصيد المحرم عالماً بتحريمه ، فإنه يقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم ، وخشيته لله ، واستغفاره وتوبته يوماً ما ، واعترافه بأنه مذنب عاص ، وانكسار قلبه من ذل المعصية ، وازدراؤه على نفسه ، ورجاؤه لمغفرة ربه له ، وعد نفسه من المذنبين الخاطئين ، وهذا كله إيمان يفضي بصاحبه إلى خير ، بخلاف الماكر المخادع المحتال على قلب دين الله .

(١) يقصد شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

ولهذا حذر النبي ﷺ أمته من ارتكاب الحيل ، فقال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »^(١) ، وقد أخبر الله تعالى أنه جعل هذه القرية - أو هذه الفعلة التي فعلها بأهلها - نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين^(٢) .

وهذا هو حقيقة لبس الحق بالباطل وحقيقة المغالطة ؛ إذ إن الدافع الحقيقي للانحراف هو الهوى والشهوة وحب الدنيا ، ولكن بدلاً من أن يعترف بضعفه هذا وشهوته ويقر بذنبه في مخالفته للشريعة ، فإنه يستدل لشهوته هذه بشبهة أدلة شرعية يعلم هو في قرارة نفسه أنها غير صالحة للاستدلال ، لكن هواه يوحي إليه أنه لا بد من غطاء يغطي به هذا الضعف والهوى .



(١) ذكره ابن كثير في التفسير ، وجود إسناده (٤٩٢/٣) طبعة دار الشعب .

(٢) أعلام الموقعين (١٦٣/٣) .

وسائل لبس الحق بالباطل

وإذا ذهبنا نتعرف على وسائل التلبيس والطرق التي يمارس بها لوجدناها لا تخرج في الغالب عن الأمور التالية :

١ - التأويل الفاسد واتباع المتشابه .

٢ - كتمان الحق وإخفاؤه .

٣ - تحريف الأدلة عن مواضعها ، وعدم إنزالها في مناطاتها .

وتفصيل ذلك فيما يلي :

١- التأويل الفاسد واتباع المتشابه :

ويقصد بالتأويل هنا التأويل الفاسد الذي لم يدل عليه دليل يصرفه عن المعنى الظاهر ، والذي هو أشبه بتحريف الكلم ، والغالب أن الذي يدفع إليه الجهل والهوى .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو التأويل الذي لم يرده الله ورسوله بكلامه ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟ وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها ، وهل أريق دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل ؟

والتأويلون أصناف عديدة بحسب الباعث لهم على التأويل ، وبحسب

قصور أفهامهم ووفورها ، وأعظمهم توغلاً في التأويل الباطل من فسد قصده وفهمه ؛ فكلما ساء قصده وفهمه ؛ كان تأويله أشد انحرافاً .

فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة ، بل يكون على بصيرة من الحق ، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق ، ومنهم من يجتمع له الأمران : الهوى في القصد، والشبهة في العلم . . .

إلى أن قال رحمه الله تعالى : قال أبو الوليد بن رشد المالكي في كتابه المسمى بـ (الكشف عن مناهج الأدلة) - وقد ذكر التأويل وجنابته على الشريعة - فقال : ومثال من أوّل شيئاً من الشرع وزعم أن ما أوله هو الذي قصده الشرع - مثال من أتى إلى دواء قد ركبه طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو أكثرهم ، فجاء رجل فلم يلائمه ذلك الدواء الأعظم لرداءة مزاج كان به ، ليس يعرض إلا للأقل من الناس ، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمها الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة لم يرد به ذلك الدواء العام، الذي جرت العادة في اللسان أن يُدكَّ بذلك الاسم عليه ، وإنما أراد به دواء آخر مما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة، فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم، وجعل فيه بدله الدواء الذي ظن أنه قصده الطبيب ، وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول ، فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول، ففسدت أمزجة كثير من الناس .

فجاء آخرون فشعروا بفساد أمزجة الناس من ذلك الدواء المركب ؛ فراموا إصلاحه بأن بدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول ؛ فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول في

أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين ، فجاء متأول رابع فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ؛ فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة ، فلما طال الزمان بهذا الدواء المركب الأعظم ، وسلط الناس التأويل على أدويته ، وغيروها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بذلك الدواء المركب في حق أكثر الناس ، وهذه هي حالة الفرق الحادثة في هذه الشريعة مع الشريعة «^(١) اهـ .

ويقول الإمام ابن القيم أيضاً :

« كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها ، فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه ، وفي خبره وإلزامه ؛ لأن أحكام الرب سبحانه كثيراً ما تأتي على خلاف أغراض الناس ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشبهات ، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيراً ، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات ، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاذه من الحق ، ولا سيما إذا قامت له شبهة ، فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى فيخفى الصواب ، وينطمس وجه الحق »^(٢) اهـ .

وعن اتباع المتشابه يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] :

« وذلك أن هذه الآية شملت قسمين ، هما أصل المشي على طريق

(١) أعلام الموقعين (٤/٣٥٣) .

(٢) الفوائد ص ١١٠ .

الصواب ، أو على طريق الخطأ :

أحدهما : الراسخون في العلم ، وهم الثابتو الأقدام في علم الشريعة ، ولما كان ذلك متعذراً إلا على مَنْ حَصَلَ الأمرين المتقدمين^(١) ؛ لم يكن بد من المعرفة بهما معاً على حسب ما تعطيه المنَّة الإنسانية ، وإذ ذاك يطلق عليه أنه راسخ في العلم ، ومقتضى الآية مدحه ، فهو إذاً أهل للهداية والاستنباط .

وحين خصَّ أهل الزيغ باتباع المتشابه ، دل التخصيص على أن الراسخين لا يتبعونه ، فإذا لا يتبعون إلا المحكم ، وهو أم الكتاب ومعظمه .

فكلُّ دليل خاص أو عام شهد له معظم الشريعة ، فهو الدليل الصحيح وما سواه فاسد ؛ إذ ليس بين الصحيح والفساد واسطة في الأدلة يستند إليها ، إذ لو كان ثم ثالث ؛ لنصت عليه الآية .

ثم لما خصَّ الزائغون بكونهم يتبعون المتشابه أيضاً ، علم أن الراسخين لا يتبعونه ، فإن تألوه ؛ فبالرد إلى المحكم ، بأن أمكن حمله على المحكم بمقتضى القواعد ، فهذا المتشابه الإضافي لا الحقيقي ، وليس في الآية نص على حكمه بالنسبة إلى الراسخين ، فليرجع عندهم إلى المحكم الذي هو أم الكتاب .

وإن لم يتألوه ؛ فبناء على أنه متشابه حقيقي ، فيقابلونه بالتسليم ، وقولهم : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

(١) وهما الرسوخ في معرفة كلام العرب والعلم بمقاصدها ، والرسوخ في العلم بقواعد الأصول التي من جهتها تستنبط الأحكام .

وكذلك ذكر في أهل الزيغ أنهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ، فهم يطلبون به أهواءهم لحصول الفتنة ، فليس نظرهم إذاً في الدليل نظر المستبصر حتى يكون هواه تحت حكمه ، بل نظر من حكم الهوى ثم أتى بالدليل كالشاهد له ، ولم يذكر مثل ذلك في الراسخين ، فهم إذن بضد هؤلاء حيث وقفوا في المتشابه فلم يحكموا فيه ولا عليه سوى التسليم ، وهذا المعنى خاص بمن طلب الحق من الأدلة ، لا يدخل فيه من طلب في الأدلة ما يصحح هواه السابق .

والقسم الثاني : من ليس براسخ في العلم ، وهو الزائغ ، فحصل له من الآية وصفان :

أحدهما : بالنص وهو الزيغ ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، والزيغ : هو الميل عن الصراط المستقيم ، وهو ذم لهم .

والثاني : بالمعنى الذي أعطاه التقسيم ، وهو عدم الرسوخ في العلم ، وكل منفي عنه الرسوخ فالى الجهل هو مائل ، ومن جهة الجهل حصل له الزيغ ؛ لأن من نعي عليه في طريق الاستنباط واتباع الأدلة لبعض الجهالات ؛ لم يحل له أن يتبع الأدلة المحكمة ولا المتشابهة .

فلو فرضنا أنه يتبع المحكم ؛ لم يكن اتباعه مفيداً لحكمه ؛ لإمكان أن يتبعه على وجه واضح البطلان أو متشابهه ، فما ظنك به إذا اتبع نفس المتشابهة؟!

ثم اتباعه للمتشابهة - لو كان من جهة الاسترشاد به لا للفتنة به - ؛ لم

يحصل به مقصود على حال ، فما ظنك به إذا اتبع ابتغاء الفتنة ؟ !
وهكذا المحكم إذا اتبعه ابتغاء الفتنة به ، فكثيراً ما ترى الجهال يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة؛ اقتصاراً بالنظر على دليل ما ، واطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له .

وكثير ممن يدعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكاً ، وربما أفتى بمقتضاه وعمل على وفقه إذا كان له فيه غرض . . . ، وكذلك الأمر أبدأ في كل مسألة يتبع فيها الهوى أولاً ، ثم يطلب لها المخرج من كلام العلماء أو من أدلة الشرع وكلام العرب أبدأ ، لاتساعه وتصرفه ، ويحتمل [أنها]^(١) كثيرة ، لكن يعلم الراسخون المراد منه ؛ من أوله وآخره ، أو فحواه ، أو بساط حاله أو قرائنه ، فمن لا يعتبره من أوله إلى آخره ويعتبر ما ابتنى عليه ؛ زل في فهمه ، وهو شأن من يأخذ الأدلة من أطراف العبارة الشرعية ، ولا ينظر بعضها ببعض ، فيوشك أن يزل ، وليس هذا من شأن الراسخين ، وإنما هو من شأن من استعجل ؛ طلباً للمخرج في دعواه .

فقد حصل من الآية المذكورة أن الزيغ لا يجري على طريق الراسخ بغير حكم الاتفاق ، وأن الراسخ لا زيغ معه بالقصد ألبتة^(٢) اهـ .

وحول هذا المعنى يقول الله عز وجل في اليهود : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ

(١) كذا في الاعتصام ، تحقيق : سليم الهلالي . وفي نسخة رشيد رضا : (واحتمالاتها كثيرة) . ولعل الصواب هو : (ويحتمل أوجهاً كثيرة) فهو أشبه بالسياق ، والله أعلم .

(٢) الاعتصام (١/ ٢٨٢-٢٨٥) طبعة تحقيق سليم الهلالي .

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

[آل عمران : ٧٨]

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية :

« وآفة رجال الدين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين ، وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب نعرفها نحن جيداً في زماننا هذا ، فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم ويلوونها لياً ؛ ليصلوا منها إلى مقررات معينة يزعمون أنها مدلول هذه النصوص ، وأنها تمثل ما أَرَادَهُ اللهُ منها ، بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها . معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية ، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النصوص إلهاء .

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيداً في بعض الرجال الذين ينسبون إلى الدين ظلماً ! الذين يحترفون الدين ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها ، ويحملون النصوص ويجرون بها وراء هذه الأهواء حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق ، وأن هناك عرضاً من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء ويلوون أعناق هذه النصوص لياً لتوافق هذه الأهواء السائدة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية ، ويبدلون جهداً لاهثاً في التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية ليوافقوا بين مدلول آية قرآنية وهوى من الأهواء السائدة التي يهيمهم تمليقها ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ [آل عمران: ٧٨] .

كما يحكي القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء، فهي آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم ، إنما تبلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التي يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض! ، وتفسد الذمة حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله ، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله ، ومجاراة أهوائهم المنحرفة ، التي تصادم دين الله . . . وكأنما كان الله سبحانه يحذر الجماعة المسلمة من هذا المزلق الوبيء ، الذي انتهى بنزع أمانة القيادة من بني إسرائيل»^(١) اهـ .

٢- كتمان الحق وإخفاؤه :

وهذه هي الطريقة الثانية من طرق لبس الحق بالباطل ، والذي يؤدي إلى تحريف الأدلة عن مواضعها ، وتغطية الحق به . يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عند قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢] : « هما متلازمان ، فإن من لبس الحق بالباطل فجعله ملبوساً به خفي من الحق بقدر ما ظهر من الباطل ، فصار ملبوساً . ومن كتم الحق احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيلبس الحق بالباطل ، ولهذا كان كل من كتم من أهل الكتاب ما أنزل الله ، فلا بد أن يظهر باطلاً»^(٢) اهـ .

وسبق لنا أيضاً من كلام الرازي عند نفس الآية قوله : « اعلم أن إضلال

(١) في ظلال القرآن (١/٤١٨ ، ٤١٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٧/١٧٢) .

الغير لا يحصل إلا بطريقتين ؛ وذلك لأن ذلك الغير إن كان قد سمع دلائل الحق فإضلاله لا يمكن إلا بتشويش تلك الدلائل عليه ، وإن كان ما سمعها فإضلاله إنما يمكن بإخفاء تلك الدلائل عنه ومنعه من الوصول إليها^(١) .

وقد ورد في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ من النصوص المحذرة من كتمان الحق وإخفائه ، والمتوعة لفاعليه بالوعيد الشديد ما يلي :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ،
وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤] .

يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيرها :

« هذه الآية جارية على الرؤساء الذين يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله ، ويشرعون لهم ما لم يشرعه من حيث يكتمون ما شرعه بالتأويل أو الترك فيدخل فيه اليهود والنصارى ، ومن هذا حذوهم في شرع ما لم يأذن به الله وإظهار خلافه ؛ سواء كان ذلك في أمر العقائد ككتمان اليهود أوصاف النبي ﷺ ، أو الأكل والتقشف وغير ذلك من الأحكام التي كانوا يكتُمونها إذا كان لهم منفعة في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١] .

وفي حكمهم كل من يبدي بعض العلم ويكتم بعضاً لمنفعة لا لإظهار

(١) التفسير الكبير (٣/٤٠) .

الحق وتأييده»^(١) اهـ.

ومثله قوله تعالى في اليهود ومن هذا حذوهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

يقول القرطبي رحمه الله: «قال المفسرون: هم اليهود، ورثوا كتاب الله فقرأوه وعلموه وخالفوا حكمه، وأتوا محارمه مع دراستهم له، فكان هذا توبيخاً لهم وتقريعاً» ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ﴾ ثم أخبر عنهم أنهم يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا لشدة حرصهم ونهمهم، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم لا يتوبون.

ودل على أنهم لا يتوبون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ والعرض: متاع الدنيا؛ بفتح الراء. وإسكانها ما كان من المال سوى الدراهم والدنانير. والإشارة في هذه الآية إلى الرشا والمكاسب الخبيثة، ثم ذمهم باغترارهم في قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، وأنهم بحال إذا أمكنتهم ثانية ارتكبوها، فقطعوا باغترارهم بالمغفرة وهم مصرون، وإنما يقول: سيغفر لنا من أقلع وندم.

قلت: وهذا الوصف الذي ذم الله تعالى به هؤلاء موجود فينا. أسند الدارمي أبو محمد: حدثنا محمد بن المبارك حدثنا صدقة بن خالد عن ابن جابر عن شيخ يكنى أبا عمرو عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سَيَّلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوبُ فَيَتَهافت، يقرأونه لا يجدون له

(١) تفسير المنار (٢/١٠١).

شهوة ولا لذة ، يَلْبَسُونَ جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصرُوا قالوا: سنبغ ، وإن أساءوا قالوا: سيغفر لنا إنا لا نشرك بالله شيئاً^(١) .

وقيل : إن الضمير في « يأتهم » ليهود المدينة ؛ أي وإن يأت يهود يثرب الذين كانوا على عهد النبي ﷺ عَرَضَ مثله يأخذه كما أخذه أسلافهم .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ، فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يريد التوراة ، وهذا تشديد في لزوم قول الحق في الشرع والأحكام ، وألا يميل الأحكام بالرُّشَا إلى الباطل .

قلت : وهذا الذي لزم هؤلاء وأخذ عليهم به الميثاق في قول الحق لازم لنا على لسان نبينا^(٢) اهـ .

وبقيت كلمة أخيرة في موضوع كتمان الحق ، ألا وهي أن بعض الطيبين قد يقول : ألا يجوز كتمان العلم بل يجب أحياناً عند خوف الفتنة من الجهر به سواء على النفس أو على الناس ؟ والجواب فيه تفصيل كما يلي :

(١) سنن الدارمي : كتاب فضائل القرآن (٤) باب : في تعاهد القرآن (ح ٣٢٢٥) :

(٢/٨٩٦) .

(٢) تفسير القرطبي (٧/٣١١) .

بادئ ذي بدء فإن حديثنا ليس عن كتمان العلم ، وإنما هو عن كتمان الحق الذي يجب أن يقال . وفي نظري - والله أعلم - أن بينهما اختلافاً ، وذلك أن العلم أنواع ، فمنه ما هو واجب القول به ، وتعليمه للناس كفروض العين ونحوها ، ومنه ما هو مستحب ، ومنه ما يجوز قوله لأناس دون أناس حسب عقولهم وأفهامهم .

أما قول الحق الواجب فأرى أنه من العلم الواجب إيصاله للناس ولا يجوز كتمه ؛ لأن في كتمه مفسدة تخالف مقاصد الشرع أو بعضها ، وفي إخفائه فتنة للناس وليس العكس ، فإذا جاز كتمان العلم أو وجب في ضوء قواعد الشريعة المعتبرة ، فإننا والحالة هذه نقول : إن الحق في هذا هو كتمان العلم وإن الجهر بالعلم مع معرفتنا بالمفسدة المترتبة عليه هو الباطل والفتنة .

هذا - والله أعلم - هو الذي عناه الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات حيث قال : « ومن هذا يعلم أنه ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ، ومما يفيد علماً بالأحكام ، بل ذلك ينقسم ؛ فمنه ما هو مطلوب النشر وهو غالب علم الشريعة ، ومنه ما لا يطلب نشره بإطلاق ، أولاً يطلب نشره بالنسبة إلى حال أو وقت أو شخص ، ومن ذلك تعيين هذه الفرقة ، فإنه وإن كان حقاً فقد يثير فتنة كما تبين تقريره ، فيكون من تلك الجهة ممنوعاً بثه . من ذلك علم المتشابهات والكلام فيها ، فإن الله ذم من اتبعها ، فإذا ذكرت وعرضت للكلام فيها فربما أدى ذلك إلى ما هو مستغنى عنه .

وقد جاء في الحديث عن علي : « حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون

أن يكذب الله ورسوله»^(١) وفي الصحيح عن معاذ أنه عليه الصلاة والسلام قال : « يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله ... الحديث» إلى أن قال : قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ، قال : « لا تبشرهم فيتكلوا»^(٢) ، وفي حديث آخر عن معاذ في مثله قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر بها فيستبشروا ، فقال : « إذا يتكلوا» ، قال أنس ، فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(٣) .

ونحو من هذا عن عمر بن الخطاب مع أبي هريرة انظره في كتاب مسلم والبخاري . فإنه قال فيه عمر : « يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً به قلبه بشره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فقال رسول الله ﷺ : « فخلهم»^(٤) .

وحديث ابن عباس عن عبد الرحمن بن عوف قال : لو شهدت أمير

(١) أخرجه البخاري : كتاب العلم (٤٩) - باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا (ح ١٢٧) [فتح الباري (١/٢٧٢)] .

(٢) متفق عليه : أخرجه البخاري - كتاب الجهاد (٤٧٦) ، باب : اسم الفرس والحمار (ح ٢٨٥٦) [فتح الباري (٦/٦٩) ، وفي مواضع أخرى .

وأخرجه مسلم - كتاب الإيمان (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (تحت ٣٠) (١/٥٨ ، ٥٩) .

(٣) متفق عليه : أخرجه البخاري - كتاب العلم (٤٩) ، باب : من خص بالعلم قوماً دون قوم . . (ح ١٢٨) [فتح (١/٢٧٢) ، ومسلم : كتاب الإيمان - (١٠) باب : الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (ح ٣٢) (١/٦١) .

(٤) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان باب (١٠) - (ح ٣١) (١/٥٩ ، ٦٠) ، وهو غير مخرج في البخاري .

المؤمنين أتاه رجل ، فقال : إن فلاناً يقول : لو مات أمير المؤمنين لبايعنا فلاناً ، فقال عمر : لأقومن العشية ، فأحذر هؤلاء الرهط الذين يريدون يغضبونهم ، قلت : لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس ويغلبون على مجلسك ، فأخاف أن لا ينزلوها على وجهها ، فيطيروا بها كل مطير ، وأمهل حتى تقدم المدينة دار الهجرة ودار السنة؛ فتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ويحفظوا مقالتك وينزلوها على وجهها ، فقال : والله لأقومن في أول مقام أقومه بالمدينة . . . الحديث^(١) . . . إلى أن قال رحمه الله تعالى : ومنه ألا يذكر للمبتدي من العلم ما هو حظ المنتهي ، بل يربى بصغار العلم قبل كباره . . . إلى أن قال : وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلماً ما تكلم فيها ولا حدث بها . وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، وأخبر عمن تقدمه أنهم كانوا يكرهون ذلك .

فتنبه لهذا المعنى ، وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة ، فإن صحت في ميزانها ، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله ، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة فاعرضها في ذهنك على العقول فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها على العموم ، إن كانت مما قبلها العقول على العموم . وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم ، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية^(٢) اهـ .

(١) أخرجه البخاري بنحوه - كتاب الحدود (٣١) باب : رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت

(٦٨٣٠) [فتح (١٤٨/١٢ ، ١٤٩)] .

(٢) الموافقات (٤/١٠٩) . (باختصار) .

٢- تحريف الأدلة عن مواضعها :

وهذه الطريقة من طرق التلبيس هي ثمرة من ثمرات الطريقتين السابق تفصيلهما ؛ إذ لا بد لمحرف الأدلة من كتمان الحق ، ولا بد لمتبع المتشابه من تأويل كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ التأويل الفاسد الذي يؤدي إلى حرف الأدلة عما أراد الله بها وأراده رسوله ﷺ ، ومن ثم وضعها في غير موضعها ، وهذا هو نوع من أنواع التحريف للأدلة عن مواضعها ؛ إذ لا يلزم من التحريف أن يكون لفظياً كما فعلت اليهود في التوراة بل إن تحريف المعنى المراد إلى غير المراد هو تحريف للنصوص عن مواضعها أيضاً .

وفي هذا يقول الشاطبي رحمه الله تعالى وهو يستعرض مأخذ أهل البدع في الاستدلال : « ومنها تحريف الأدلة عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط ، فيُصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر ؛ موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله .

ويغلب علي الظن أن من أقرَّ بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لا يلجأ إليه صراحاً ، إلا من اشتباه يعرض له ، أو جهل يصدده عن الحق مع هوى يعميه عن أخذ الدليل مأخذه . . . وبيان ذلك أن الدليل الشرعي إذا اقتضى أمراً في الجملة مما يتعلق بالعبادات مثلاً فأتى به المكلف في الجملة أيضاً ، كذكر الله والدعاء والنوافل والمستحبات وما أشبهها مما يعلم من الشارع فيها التوسعة - كان الدليل عاصداً [لعمله]^(١) من جهتين : من جهة معناه ، ومن جهة عمل السلف ، فإن أتى المكلف في ذلك الأمر بكيفية مخصوصة أو زمان مخصوص ، أو مكان مخصوص أو مقارناً لعبادة

(١) في الأصل : لعلمه ، والصواب ما أثبتته إن شاء الله تعالى .

مخصوصة ، والتزم ذلك بحيث صار متخيلاً أن الكيفية أو الزمان أو المكان مقصود شرعاً من غير أن يدل الدليل عليه ؛ كان الدليل بمعزل عن ذلك المعنى المستدل عليه»^(١) اهـ .

ويوضح الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى هذه القاعدة المهمة : (قاعدة تحقيق المناط) توضيحاً أكثر في كتابه العظيم (الموافقات) ، فيقول :

« كل دليل شرعي فمبني على مقدمتين : إحداهما : راجعة إلى تحقيق مناط^(٢) الحكم . والأخرى : ترجع إلى نفس الحكم الشرعي .

فالأولى نظرية : وأعني بالنظرية هنا ما سوى النقلية سواء علينا أثبتت بالضرورة أم بالفكر والتدبر ، ولا أعني بالنظرية مقابل الضرورية . والثانية نقلية .

وبيان ذلك ظاهر في كل مطلب شرعي بل هذا جار في كل مطلب عقلي أو نقلي فيصح أن نقول الأولى راجعة إلى تحقيق المناط ، والثانية راجعة إلى الحكم ، ولكن المقصود هنا بيان المطالب الشرعية .

فإذا قلت : إن كل مسكر حرام ، فلا يتم القضاء عليه حتى يكون بحيث يشار إلى المقصود منه ليستعمل أو لا يستعمل ؛ لأن الشرائع إنما جاءت لتحكم على الفاعلين من جهة ما هم فاعلون ، فإن شرع المكلف في تناول خمر مثلاً ، قيل له : أهذا خمر أم لا ؟ فلا بد من النظر في كونه خمرأ أو غير خمر ، وهو معنى تحقيق المناط . فإذا وجد فيه أمارة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر ، قال : نعم هذا خمر ، فيقال له : كل خمر حرام الاستعمال ؛ فيجتنبه .

(١) الاعتصام (١/٣١٧ ، ٣١٨) .

(٢) المناط : هو الوصف المناسب الذي يناط به الحكم .

وكذلك إذا أراد أن يتوضأ بماء فلا بد من النظر إليه هل هو مطلق أم لا ، وذلك برؤية اللون وبذوق الطعم وشم الرائحة . فإذا تبين أنه على أصل خلقتة ، فقد تحقق مناطه عنده ، وأنه مطلق ، وهي المقدمة النظرية ثم يضيف إلى هذه المقدمة ثانية نقلية ، وهي أن كل ماء مطلق ، فالوضوء به جائز . وكذلك إذا نظر هل هو مخاطب بالوضوء أم لا فينظر هل هو محدث أم لا . فإن تحقق الحدث فقد حقق مناط الحكم ، فيرد عليه أنه غير مطلوب بالوضوء ، وإن تحقق فقد ، فكذلك فيرد عليه أنه غير مطلوب بالوضوء وهي المقدمة النقلية .

فالحاصل أن الشارع حكم على أفعال المكلفين مطلقة ومقيدة ، وذلك مقتضى إحدى المقدمتين وهي النقلية ، ولا ينزل الحكم بها إلا على التحقق أنه مناط ذلك الحكم على الإطلاق أو على التقييد وهو مقتضى المقدمة النظرية ، والمسألة ظاهرة في الشرعيات نعم ، وفي اللغويات والعقليات ؛ فإننا إذا قلنا ضرب زيد عمراً ، وأردنا أن نعرف الذي يرفع من الاسمين وما الذي ينصب ، فلا بد من معرفة الفاعل من المفعول . فإذا حققنا الفاعل وميزناه حكمنا عليه بمقتضى المقدمة النقلية ، وهي أن كل فاعل مرفوع ، ونصبنا المفعول كذلك ؛ لأن كل مفعول منصوب .

وإذا أردنا أن نصغر (عقرباً) تحققنا أنه رباعي يستحق من أبنية التصغير بنية (فيعيل) ؛ لأن كل رباعي على هذه الشاكلة تصغيره على هذه البنية ، وهكذا في سائر علوم اللغة ، وأما العقليات فكما إذا نظرنا في العالم هل هو حادث أم لا ؟ فلا بد من تحقيق مناط الحكم - وهو العالم - فنجده متغيراً ، وهي المقدمة الأولى ، ثم نأتي بمقدمة مسلمة ، وهو قولنا: كل متغير

حادث»^(١) اهـ .

مما سبق بيانه في كلام الشاطبي رحمه الله تعالى يتضح لنا أهمية الانتباه إلى قاعدة تحقيق المناط ، وأن إغفالها وعدم تحقيقها هو الذي يوقع غالباً في اللبس ، وينشأ من التفريط فيها تحريف الأدلة عن مواضعها ، وإنزال أحكام الشريعة في غير مراد الله سبحانه ، وغير مراد رسوله ﷺ منها .

ولكي تتضح هذه القاعدة بشكل أكثر وضوحاً ؛ أسوق المثال التالي من واقعنا المعاصر ، ألا وهو تحديد مفهوم الفتنة وأهلها ، فلو طبقنا المقدمتين اللتين ذكرهما الشاطبي فيما سبق على موضوع الفتنة وحقيقتها ، ومتى تسمى فتنة ، ومتى يسمى الداعون إلى أمر ما بأنهم دعاة فتنة؟

لو طبقنا هاتين المقدمتين لاتضح الأمر وبان ، فحكم الله عز وجل في الفتنة أنها محرمة ومرفوضة ، وبالتالي فإن الداعين إليها هم دعاة فتنة ، فيجب منعهم والحذر من شرهم ، هذا حكم الله سبحانه وهو المقدمة النقلية ، ولكن يبقى تحقيق المناط في أي أمر يجد وهو المقدمة النظرية . وهو هنا البحث في حاله وحال أهله ، هل هم دعاة فتنة وشر وخراب للمجتمع ، أم هم دعاة إصلاح ونصح وغيره على محارم الله عز وجل؟

إن المنصف القائم لله سبحانه ليعلم أن الدعاة إلى الخير والإصلاح والنصح ليسوا دعاة فتنة وشر ، وبالتالي لا يجوز إنزال المناط في غير حكمه ومحلّه . وهذا لا يكون إلا عند صاحب هوى قد أسكره هواه ، أو جاهل لم يكلف نفسه بالبحث والتحقيق . أما من أدى به اجتهاده من أهل الاجتهاد إلى أن : مفسدة قول الحق أكبر من مصلحته وتؤدي إلى فتنة ، وكان متجرداً فهو مأجور إن شاء الله ، أصاب أم أخطأ .

(١) الموافقات (٣/٢٤) .

وقبل الانتهاء من مبحث أسباب التليس أنقل كلاماً مفيداً للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يبين فيه أثر استيلاء النفس الأمارة بالسوء في التباس الحق بالباطل ، وأن هناك صراعاً بين النفس الأمارة والمطمئنة . يقول رحمه الله تعالى :

« وقد انتصبت الأمارة في مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاقتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فإذا جاءت بالإيمان والتوحيد جاءت هذه بما يقده في الإيمان من الشك والنفاق ، وما يقده في التوحيد من الشرك ومحبة غير الله وخوفه ورجائه ، ولا ترضى حتى تقدم محبة غيره وخوفه ورجائه على محبته سبحانه وخوفه ورجائه ، فيكون ماله عندها هو المؤخر وما للخلق هو المقدم ، وهذا حال أكثر الخلق .

وإذا جاءت تلك بتجريد المتابعة للرسول جاءت هذه بتحكيم آراء الرجال وأقوالهم على الوحي ، وأنت من الشبه المضلة بما يمنعها من كمال المتابعة ، وتحكيم السنة وعدم الالتفات إلى آراء الرجال . فتقوم الحرب بين هاتين النفسين ، والمنصور من نصره الله .

وإذا جاءت تلك بالإخلاص والصدق والتوكل والإنابة والمراقبة جاءت هذه بأضدادها وأخرجتها في عدة قوالب ، وتقسم بالله ما مرادها إلا الإحسان والتوفيق ، والله يعلم أنها كاذبة وما هو مرادها إلا مجرد حفظها واتباع هواها والتفلسف من سجن المتابعة والتحكيم المحض للسنة إلى فضاء إرادتها وشهوتها وحفظها .

ولعمرك الله ما تخلصت إلا من فضاء المتابعة والتسليم إلى سجن الهوى والإرادة وضيقه وظلمته ووحشته فهي مسجونة في هذا العالم ، وفي البرزخ في أضيق منه ، ويوم الميعاد الثاني في أضيق منهما .

ومن أعجب أمرها أنها تسحر العقل والقلب ، فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة ، وأكثر الخلق : صبيان العقول أطفال الأحلام ، ولم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذي يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره، وشر الشرين فيجتنبه ، فتريه صورة تجريد التوحيد التي هي أبهى من صورة الشمس والقمر، صورة التنقيص المذموم ، وهضم العظماء منازلهم ، وحطهم منها إلى مرتبة العبودية المحضة والمسكنة والذل والفقر المحض الذي لا ملكة لهم معه ولا إرادة ولا شفاعاة إلا من بعد إذن الله .

فتريهم النفس السحارة هذا القدر غاية تنقيصهم وهضمهم ونزول أقدارهم ، وعدم تمييزهم عن المساكين الفقراء ؛ فتنفر نفوسهم من تجريد التوحيد أشد النفار ويقولون : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾ [ص: ٥] .

وتريهم تجريد المتابعة للرسول وما جاء به وتقديمه على آراء الرجال في صورة تنقيص العلماء والرغبة عن أقوالهم وما فهموه عن الله ورسوله ، وأن هذا إساءة أدب عليهم وتقديم بين أيديهم ، وهو مفض إلى إساءة الظن بهم ، وأنهم قد فاتهم الصواب . وكيف لنا قوة أن نرد عليهم ونفوز ونحظى بالصواب دونهم ، فتنفر من ذلك أشد النفار ، وتجعل كلامهم هو المحكم الواجب الاتباع ، وكلام الرسول هو المتشابه الذي يعرض على أقوالهم ، فما وافقها قبلناه ، وما خالفها رددناه ، وأولناه أو فوضناه ، وتقسم النفس السحارة بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم . . .

وأعجب من ذلك أنها تضاهي ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها ، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر ، ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر ، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات وتظهر على الأركان من النفسين الأمانة والمطمئنة ، فيتباين الفعلان في الباطن ، ويشتهان في الظاهر .

ولذلك أمثلة كثيرة منها : المداراة والمداهنة : فالأول من المطمئنة ، والثاني من الأمانة ، وخشوع الإيمان وخشوع النفاق ، وشرف النفس والتهيه ، والحمية والجفاء ، والتواضع والمهانة ، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض ، والحمية لله والغضب له ، والحمية للنفس والغضب لها ، والجود والسرف ، والمهابة والكبر ، والصيانة والتكبر ، والشجاعة والجرأة ، والحزم والجبن ، والاقتصاد والشح ، والاحتراز وسوء الظن ، والفراصة والظن ، والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة ، والصبر والقسوة ، والعفو والذل ، وسلامة القلب والبله والغفلة ، والثقة والغرة ، والرجاء والتمني . والتحدث بنعم الله والفخر بها ، وفرح القلب وفرح النفس ، ورقة القلب والجزع ، والموجدة والحقد ، والمنافسة والحسد ، وحب الرياسة وحب الإمامة والدعوة إلى الله ، والحب لله والحب مع الله ، والتوكل والعجز ، والاحتياط والوسوسة ، وإلهام الملك وإلهام الشيطان ، والأناة والتسوية ، والاقتصاد والتقصير ، والاجتهاد والغلو ، والنصيحة والتأنيب ، والمبادرة والعجلة ، والإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى .

فالشيء الواحد تكون صورته واحدة، وهو منقسم إلى محمود ومذموم»^(١).



المبحث الرابع صور من لبس الحق بالباطل

بعد بيان الأسباب التي تؤدي إلى لبس الحق بالباطل، والمؤدية بدورها إلى الضلال والإضلال، وبعد بيان معنى اللبس والتلبس، وأنه إلباس الهوى والشهوة لبوساً شرعياً بتحريف الأدلة أو كتمانها. نذكر هنا بعضاً من صور اللبس والتضليل؛ وذلك لنحذر من الوقوع فيها بأنفسنا، ونحذر إخواننا المسلمين من الوقوع فيها والانخداع بها، ولم أراع في ترتيبها الأهمية لكن حسب ما عن في الخاطر. أسأله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل. فمن هذه الصور ما يلي:

١- الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله والمستحلة لما حرم الله بآثار عن السلف أنه (كفر دون كفر) :

وهذا والله تحريف للأدلة عن مواضعها، وإنزال الحكم في غير محله، وافتراء وتجن على حبر الأمة وترجمان القرآن، وعلى خير القرون في هذه الأمة؛ فما كانوا عن عصرنا يتحدثون، ولا أنظمتهم المبدلة لشرع الله يقصدون. فالله المستعان وعليه التكلان.

ومن أحسن ما رأيت من الردود على هذا التلبس ما كتبه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى؛ أنقله بطوله لأهميته :

قال الشيخ أحمد شاكر في عمدة التفسير : « وهذه الآثار - عن ابن عباس

وغيره - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا ، من المنتسبين للعلم ، ومن غيرهم من الجراء على الدين ؛ يجعلونها عذراً أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعية ، التي ضربت على بلاد الإسلام .

وهناك أثر عن أبي مجلز في جدال الإباضية الخوارج إياه ، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور ، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة ، عمداً إلى الهوى ، أو جهلاً بالحكم . والخوارج من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافر ، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء ؛ ليكون ذلك عذراً لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف .

وهذان الأثران رواهما الطبري : ١٢٠٢٥ ، ١٢٠٢٦ . وكتب عليهما أخي السيد محمود محمد شاكر تعليقاً نفيساً جداً ، قوياً صريحاً ، فرأيت أن أثبت هنا نص أولى روايتي الطبري ، ثم تعليق أخي على الروایتين .

فروى الطبري (١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير ، قال : « أتى أبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس ، فقالوا : يا أبا مجلز ، رأيت قول الله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ، أحق هو؟ قال : نعم ، قالوا : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] أحق هو؟ قال : نعم ، قالوا : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧] أحق هو؟ قال : نعم .

قال : فقالوا : يا أبا مجلز ، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال : هو دينهم الذي يدينون به ، وبه يقولون ، وإليه يدعون . فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا بأنهم أصابوا ذنباً ، فقالوا : لا والله ، ولكنك تفرق ! قال : أنتم أولى بهذا مني ! لا أرى وإنكم ترون هذا ولا تحرجون ! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى

وأهل الشرك ، أو نحو من هذا » .

ثم روى الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه ، وإسناده صحيحان .

فكتب أخي السيد محمود ، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه : « اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة . وبعد ، فإن أهل الريب والفتن ممن تصدروا للكلام في زماننا هذا قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله ، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام فلما وقف على هذين الخبرين ، اتخذهما رأياً يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله ، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها ، والعامل عليها .

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول ، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني السدوسي) تابعي ثقة ، وكان يحب علياً رضي الله عنه ، وكان قوم أبي مجلز وهم بنو شيبان ، من شيعة علي يوم الجمل وصفين ، فلما كان أمر الحكمين يوم صفين واعتزلت الخوارج ، كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه طائفة من بني شيبان ، ومن بني سدوس بن شيبان بن ذهل .

وهؤلاء الذين سألوأبا مجلز ناس من بني عمرو بن سدوس (كما في الأثر ١٢٠٢٥) ، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر ١٢٠٢٦) ، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية ، هم أصحاب عبد الله بن إياض التميمي ، وهم يقولون بمقالة سائر الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير علي رضي الله عنه إذ حكّم الحكمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله في أمر التحكيم .

ثم إن عبد الله بن إباح قال : إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ،
فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من
خالفهم .

ثم افرقت الإباضية بعد عبد الله بن إباح الإمام افتراقاً لا ندري معه - في
أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء السائلون ، بيد أن الإباضية كلها
تقول : إن دور مخالفيهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان ؛ فإنه دار كفر
عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ،
وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار
خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، إنما كانوا يريدون أن
يلزموه الحجة في تكفير الأمراء لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما
عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر
الأول (رقم ١٢٠٢٥) : فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً ،
وقال لهم في الخبر الثاني : إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب .

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في
الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في
إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه ،
وعلى لسان نبيه ﷺ ، فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبة عن دينه ،
وإثارة لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك
أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة ، وادعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت فسقطت الأحكام كلها بانقضائها ، فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس !! ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة ، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها ، هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ؛ فهذا أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكم بها متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء ، فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب وسنة رسول الله ﷺ .

وإما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه ، فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابهما ، وصرفهما إلى غير معناهما رغبة في نصرة سلطان أو احتيالا على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ؛ فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم

الله، ورضي بتبديل الأحكام - فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر»^(١) اهـ.

بعد هذا النقل الذي لا يحتاج إلى مزيد هل لقائل أن يقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما أو إن أبا مجلز كانا يقصدان بقوليهما أهل زماننا الذين بدلوا شرع الله وأعرضوا عن الحكم به والتحاكم إليه لعدم صلاحيته لزمانهم هذا - زعموا -!؟

اللهم إنا نبرأ من هذا اللبس ونبرئ صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من هذا التلبس وهذه المغالطات ، وأنه لا أحد ينزل قول ابن عباس رضي الله عنهما أو قول أبي مجلز على المبدلين لشرع الله في زماننا هذا إلا رجل يسيطر عليه الجهل بالواقع فلا يعلم ما يدور من حوله ، أو رجل منافق ملبس يعلم واقعه وعدم مشابهته للواقع الذي كان يتحدث عنه السلف رضي الله عنهم ، ولكنه يغالط ويخلط الحق بالباطل اتباعاً للهوى ، أو طمعاً في دنيا يصيبها .

٢- الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل والمهانة:

وهذه الصورة من صور اللبس والمغالطة ليس القصد من إيرادها هنا الرد على المحتجين بالقدر على ضلالهم ومعاصيهم ، وإنما المقصود التنبيه على أن من يحتج بالقضاء والقدر ليبرر به انحرافه وكسله وضعفه إنما هو مغالط ولبس ومدلس ، وهو يعلم في قرارة نفسه أن لا حجة له في ذلك ، وإنما أراد أن يخلط باطله وضعفه وانحرافه بقضاء الله وقدره النافذ ، والذي

(١) عمدة التفسير (٤/١٥٦-١٥٨) ، وتفسير الطبري (١٠/٣٤٨ ، ٣٤٩).

هو حق لكن أراد منه باطلاً ، وأنزل الحق في غير ما أنزل له ، وحرف الكلم عن مواضعه بأن وضع الدليل في غير موضعه الذي أراده الله سبحانه منه .

وموضوع الرد على المحتجين بالقدر موجود في مظانه من كتب العقيدة الصحيحة (معتقد أهل السنة والجماعة) من مثل العقيدة الواسطية ، ومعارج القبول ، وشرح العقيدة الطحاوية . . . إلخ .

والمراد هنا كشف اللبس الحاصل بين الحق والباطل في هذه المسألة ؛ حيث إن المحتج بالقدر على فعل المعاصي والإصرار عليها قد وقع في لبس عظيم ، ويعلم هو بنفسه أن احتجاجه ليس في محله ، وإنما أورده لتبرير شهوته وضعفه ؛ بدليل أنه في أمور الدنيا وكسبها لانجده يقعد محتجاً بالقدر ، وأن الله سبحانه كتب عليه الفقر أو الجوع أو عدم الزواج ، بل إننا نجده يسعى ويفعل الأسباب الممكنة لدفع الفقر أو الجوع أو المرض ، أو يجمع المهر للزواج . . . إلخ .

فلماذا لا يكون هذا في أمر الدين وأمور الآخرة ، فيسعى للآخرة سعيها ، يأخذ بأسباب الهداية وأسباب النجاة من النار ، وهي ميسرة لمن أرادها ؟ لماذا هو جبري في أمور الدين والآخرة ، وقدري في أمور الدنيا ؟!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

« وهؤلاء من أعظم أهل الأرض تناقضاً ، بل كل من احتج بالقدر فإنه متناقض ؛ فإنه لا يمكن أن يقر كل آدمي على ما يفعل ؛ فلا بد إذا ظلمه ظالم ، أو ظلم الناس ظالم وسعى في الأرض بالفساد وأخذ يسفك دماء الناس ويستحل الفروج ، ويهلك الحرث والنسل ونحو ذلك من أنواع

الضرر التي لا قوام للناس بها : أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكف عدوانه وعدوان أمثاله . فيقال له : إن كان القدر حجة ؛ فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك . وإن لم يكن حجة ؛ بطل أصل قولك : إن القدر حجة^(١) اهـ .

ثم إن هذا الملبس والمغالط لو أنه احتج بالقدر على الذنب بعد وقوعه كمصيبة من المصائب التي قدرها الله عز وجل عليه لكان لذلك وجه حتى لا يئأس من التوبة ؛ فالله سبحانه قد قدر عليه الذنب بقضائه الكوني القدري لحكمة يعلمها سبحانه ، وتم ما أراه الله عز وجل ، فعندئذ نقول : قدر الله وما شاء فعل ، فلا تئأس من رحمة الله بعد وقوعك في الذنب ، ولا تهن وتضعف من تسلط الأعداء ؛ فإن الله سبحانه الذي أراد هذا كوناً وقدرأ قد أراد مدافعتة ديناً وشرعاً بالتوبة النصوح وجهاد الأعداء ، وبهذا ندفع أقدار الله سبحانه بأقداره عز وجل .

ومن هنا نفهم معنى قول من قال من السلف : « إنه يحتج بالقدر على المصائب لا على المعائب » ؛ أي إن القدر لا يجوز الاحتجاج به على فعل العيب أو قوله من الذنوب والمعاصي وترك الجهاد . . . إلخ لكن يحتج به على المصائب الناشئة عن هذه الذنوب حتى لا يدخل اليأس إلى النفوس ، وحتى ينهض العاصي من عثرته ليزيل آثار الذنوب والتوبة والإنابة والندم . أما أن يفعل الذنوب أو أن يقدم ويتجرأ على فعلها محتجاً بالقدر فلا شك ولا ريب أن كل عاقل - فضلاً عن كل مسلم - يعلم أن هذا ليس للحق بالباطل ، ومغالطة أي مغالطة ، وفاعل ذلك يعلم من نفسه أنه ليس على حق

(١) العبودية ص (٢١).

في صنيعه هذا لكنها الشهوة والضعف والهوى .

وأختم هذه الصور بكلام نفيس للإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى حول هذه المسألة فيقول :

«وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « احتج آدم وموسى ، فقال موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ قال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، فهل وجدت ذلك مكتوباً عليّ قبل أن أخلق؟! قال : نعم . قال : فحج آدم موسى»^(١) .

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ، ظناً أن المذنب يحتج بالقدر ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ، ولو كان هذا عذراً لكان عذراً لإبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وكل كافر ، ولا موسى لام آدم أيضاً لأجل الذنب ، فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ، ولكن لآدم لأجل المصيبة التي لحقتهم بالخطيئة ، ولهذا قال : فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فأجابه آدم : إن هذا كان مكتوباً عليّ قبل أن أخلق . فكان العمل والمصيبة المترتبة عليه مقدرأ ، وما قدر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضا بالله رباً .

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب من المعاييب ، ويصبر على المصائب . قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] .

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري بنحوه - كتاب التفسير - (٤٧٣٦) ومسلم في القدر (٢٦٥٢) .

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال يوسف: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

[يوسف: ٩٠]

وكذلك ذنوب العباد، يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَمْثَالَ الْوُجَاهِ الْمُرَّةِ الْيَاسُورِ (٢) لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ١ - ٤] «^(١) اهـ.

وقريباً من الذين يحتجون بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالواقع أولئك الذين يتجرأون على فعل المعاصي اعتماداً على رحمة الله سبحانه ؛ نعم إن الله غفور رحيم ، ولكن هذه الرحمة لا يقصد بها أن يتجرأ هذا الملبس

على المعصية ، وإنما المقصود منها فتح باب التوبة والرحمة لمن وقع فيها وانتهى وندم ، فيقال له : لا تيأس ؛ فإن الله غفور رحيم .

٣- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن :

ليس المقصود من إيراد هذه الصورة هو الحديث والاستفاضة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراتبه وشروطه وضوابطه ، فكل هذا ليس المقصود في هذه المسألة ، فتفصيل الأمر والنهي وشروطهما موجود في مظانه من كتب أهل العلم وبخاصة رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وإنما المقصود من إيراد هذا العنوان هو التحذير من خلط الأمور في هذه الشعيرة العظيمة ، والانتباه إلى أن هناك من يترك الأمر والنهي عجزاً وكسلاً وجبناً وبخلاً ، فبدلاً من الاعتراف بذلك والسعي للتخلص منه فإنه يحاول جاهداً تغطية ضعفه هذا بمبررات شرعية منها : الخوف من الفتن ، واعتزال كل ما يعرض النفس للابتلاء والفتنة والهلكة ، ودرء المفسد ، معتمداً على قاعدة تعارض المصالح والمفاسد والضوابط الشرعية في ذلك .

وكما أسلفت فإن موضوع هذه الصورة ليس الحديث عن القواعد والضوابط الشرعية في ذلك ؛ فهي لا شك معتبرة ، وهي الأصل في الأمر والنهي ، وإنما موضوعنا هو كشف اللبس والتدليس والمغالطة على النفس وعلى الناس في أن النكول عن الأمر والنهي قد تم من منطلق شرعي وضوابط شرعية ، والأمر في حقيقته ليس كذلك ، وإنما هو الخوف والجبن وإيثار السلامة وعدم تحمل أي أذى ومكروه في سبيل الله عز وجل . وإلا لو

كان المنطلق شرعياً وفق الضوابط الشرعية وفي حالة معينة أدى الاجتهاد فيها إلى أن المفسدة أكبر والمصلحة أقل ؛ فهذا معتبر شرعاً : أصاب المجتهد فيها أم أخطأ .

لكن الحديث ليس عن هذا المجتهد الباحث عن الحق ، بل هو كما سبق ذكره متوجه إلى ذلك المغالط الذي يغطي ضعفه وهواه بلبوس شرعي ؛ يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يعرض به المرء للفتنة ؛ صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة ، كما قال عن المنافقين : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ [التوبة : ٤٩] .

وقد ذكر في التفسير أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم ، وأظنه قال : « هل لك في نساء بني الأصفر ؟ » ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر عن النساء ؛ وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ولا تفتني ^(١) .

وهذا الجد هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة ، واستتر بجمل أحمر ، وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » ^(٢) فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتن بهن ، فيحتاج

(١) انظر تفسير الطبري ، الآثار (١٦٧٨٥-١٦٧٨٩) (١٤/٢٨٨) الطبعة المحققة .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (ح٢٧٨٠) (٤/٢١٤٤-٢١٤٥) .

إلى الاحتراز من المحذور، ومجاهدة نفسه عنه فيتعذب بذلك أو يواقعه فيأثم فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها فإن لم يتمكن منها إما لتحريم الشارع، وإما للعجز عنها يعذب قلبه، وإن قدر عليها وفعل المحذور هلك. وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء.

فهذا وجه قوله: ﴿لَا تَفْتِنِي﴾ قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، يقول: نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد: فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته؟ والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لثلاث تكون فتنة؛ فهو في الفتنة ساقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمر الله به من الجهاد.

فتدبر هذا؛ فإن هذا مقام خطر؛ فإن الناس هنا ثلاثة أقسام: قسم يأمررون وينهون ويقاتلون؛ طلباً لإزالة الفتنة التي زعموا، ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة؛ كالمقتلين في الفتنة الواقعة بين الأمة.

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لثلاث يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد سقطوا في الفتنة، وهذه الفتنة المذكورة في «سورة براءة» دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة؛ فإنها سبب نزول الآية.

وهذه حال كثير من المتدينين؛ يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا؛ لثلاث يفتنوا

بجنس الشهوات؛ وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه، وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب وترك المحظور، وهما متلازمان؛ وإنما تركوا ذلك لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعاً أو تركهما جميعاً، مثل كثير ممن يحب الرئاسة أو المال وشهوات الغي؛ فإنه إذا فعل ما وجب عليه من أمر ونهي وجهاد وإمارة ونحو ذلك فلا بد أن يفعل شيئاً من المحظورات.

فالواجب عليه أن ينظر أغلب الأمرين؛ فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور لم يترك ذلك لما يخاف أن يقتصرن به ما هو دونه من المفسدة، وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً لم يفوت ذلك برجاء ثواب بفعل واجب يكون دون ذلك؛ فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات، فهذا هذا. وتفصيل ذلك يطول.

وكل بشر على وجه الأرض لابد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها، إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهم ائتمار بأمر وتناه عن أمر^(١) اهـ.

بعد هذا الكلام النفيس لشيخ الإسلام؛ هل لقائل أن يقول: إنه يجب

(١) مجموع الفتاوى (١٦٦/٢٨-١٦٨).

الابتعاد في الدعوة إلى الله سبحانه عن كل ما من شأنه أن يجر على الداعية الأذى والمحن؟!

إن صاحب هذا القول قد نسي أو تناسى سنة الله عز وجل في الصراع بين الحق والباطل ، وستته سبحانه في الابتلاء والتمحيص . قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْسَبِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [العنكبوت: ١ - ٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٥) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿ .

[العنكبوت: ١٠ ، ١١]

نعم إن من بيننا من يريد المغنم من الدعوة ولا يريد المغمم ؛ بدليل عدم الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترض في الطريق ولو كان قليلاً ، فما دام الأمن وما دامت السلامة والراحة فهو نشيط ومتحرك ، فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتمحيص أثر السلامة والراحة ، وعلل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد .

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الداعية عن الأذى والابتلاء ؛ كلا ، فالمطلوب سؤال العافية وعدم تمني البلاء ، كما لا يفهم منه أيضاً الدعوة إلى التهور والطيش ؛ معاذ الله ، فلا بد من المنطلقات الشرعية في كل التصرفات ، لكن المراد ألا تغفل عن سنة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين ، وأن نوطن أنفسنا على هذه الأمور ؛ لأنه لا بد منها لكل من ادعى الإيمان ، وتصدر الدعوة والجهاد ، ولا بد منها لتمييز الخبيث من الطيب ، ولا بد منها

لتمحيص القلوب والصفوف .

ولو قلبنا تاريخ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتاريخ الدعاة والمصلحين لرأينا ذلك المعلم ظاهراً وقاسماً مشتركاً عندهم جميعاً ؛ حيث لم تخل حياة رسول ولا مصلح مجدد من الأذى والمحن والابتلاء ، بل لم يحصل التمكين لهم ، وإقامة دين الله سبحانه في الأرض على أيديهم إلا بعد الصبر والمصابرة على صنوف الأذى والمحن في سبيل الله سبحانه ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيَّ مَا كُذِّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

وما أظن أحداً يجهل حادثة أصحاب الأخدود ، ولا قول الرسول ﷺ لخباب بن الأرت رضي الله عنه : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه... الحديث »^(١) .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن النفس الأمارة مع الإنسان أنها : « تربه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم ، وأنه يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق ، وأنه يصير غرضاً لسهام الطاعنين وأمثال ذلك من الشبه التي تقيمها النفس السحارة والخيالات التي تخيلها »^(٢) .

(١) أخرجه البخاري - كتاب الإكراه - باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (ج ٦٩٤٣) [فتح (٣٣٠/١٢)] .

(٢) الروح ص (٢٣٠) .

وقد وقفت على كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يفسر فيه سورة الأحزاب، وخاصة ما يتعلق بغزوة الخندق، ويقارن بين حال المسلمين في تلك الغزوة وما أصابهم من الزلازل والمحن فيها، وبين غزو التتار لبلاد الشام ذكراً أوجه التشابه بين الغزوتين، أنقل منها المناسب للمقام.

يقول رحمه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]:

«كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق، والنساء والصبيان في أطام المدينة - : يا رسول الله، إن بيوتنا عورة؛ أي مكشوفة، فليس بينها وبين العدو حائل! قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة العائلة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة - غزو التتار - صاروا يفرون من الثغر إلى المعقل والحصون والأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال وما يمكن إرسالهم مع غيرنا! وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو كما فعل المسلمون على عهد الرسول ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟»^(١).

وقال في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]:

« فأخبر سبحانه أن الذين يتلون بالعدو كما ابتلي رسول الله ﷺ فلهم فيه أسوة حسنة ؛ حيث أصابهم مثل ما أصابه فليتأسوا به في التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما ابتلي بها رسول الله ﷺ ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك ، فيكون في حقه عذاباً كالكفار والمنافقين»^(١) اهـ .

نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من الفتن ويصبرنا بمواطن الضعف في نفوسنا ، وأن يعيذنا من النفاق وأن يعيننا على قول الحق والاعتراف بالحق حتى لا نغالط أنفسنا ونلبس على غيرنا ، فنظهر ضعفنا وجبننا في صورة درء المفاسد واعتزال الفتن!! .

وقريب من هؤلاء أولئك الذين يبررون كسلهم وحبهم للراحة وضعف همتهم بالتواضع البارد والزهد في المسئولية ؛ لأنه يعرف أن الدعوة إلى الله سبحانه لا يعرف صاحبها الراحة وتحتاج إلى همة عالية ، لكنه عوضاً من أن يعترف بضعفه هذا ويسعى إلى ترقيعه فإنه يغالط نفسه وغيره بإلقاء هذا الضعف على الخوف من المسئولية واحتقار النفس ، وأن هناك من هو أولى وأتقى وأفضل . . . إلخ .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له وتعظيم النفس والسعي في حظها ؛ فإن الناصح لله

المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى ، وأن تكون كلمته هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه ، فقد ناصح الله في عبوديته ، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله ، فهو يحب الإمامة في الدين ، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إماماً يقتدي به المتقون كما اقتدى هو بالمتقين .

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلاً ، وفي قلوبهم مهيباً وإليهم حبيباً ، وأن يكون فيهم مطاعاً لكي يأتموا به ، ويقتفوا أثر الرسول على يده ، لم يضره ذلك ، بل يحمده عليه ، لأنه داع إلى الله يحب أن يطاع ويعبد ويوحّد ، فهو يحب ما يكون عوناً على ذلك موصلاً إليه ، ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه وأثنى عليهم في تنزيهه وأحسن جزاءهم يوم لقائه فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم ، ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه ، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة ، فإمّا سألوه ما يعينون به المتقين على مرضاته وطاعته وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسها الصبر واليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] ، وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم بالعلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ظاهراً وباطناً التي لا تتم الإمامة إلا بها ، وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن

جل جلاله ؛ ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته ،
وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف وهي المنازل العالية في
الجنة ؛ لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية بل من أعلى مرتبة
يعطاها العبد في الدين ؛ كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة .

وهذا بخلاف طلب الرياسة ؛ فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها
أغراضهم من العلو في الأرض وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم ومساعدتهم
لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم ، فترتب على
هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقْد
والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله وتعظيم من حقره الله واحتقار من
أكرمه الله ، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك ولا تنال إلا به وبأضعافه من
المفاسد .

والرؤساء في عمى عن هذا ، فإذا كشف الخطاء تبين لهم فساد ما كانوا
عليه ، ولا سيما إذا حشروا في صور الذر يطوهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة
لهم وتحقيراً وتصغيراً كما صغروا أمر الله وحقروا عباده^(١) .

ومثل هؤلاء الذين يبررون ضعفهم وتنصلهم بمبرر شرعي هو اعتزال
الفتن أو الخوف من المسؤولية ؛ مثلهم أولئك الذين يبررون خوفهم
وترددهم بالحزم والتأني والخوف من الله سبحانه في أن يقدموا على أمر لم
يتثبتوا فيه ، ولم يدرسوه الدراسة الشرعية المتأنية ، وهذا حق لا شك فيه ؛
فلا ينبغي القدوم على أمر حتى يتم التثبت منه ، وأنه الأرضى لله عز وجل ،
لكن المشكلة والمغالطة هنا هي في استخدام هذه الشبهة الشرعية في تغطية
الجن والخور اللذين يسيطران على النفس ، وعلامة ذلك أن هذا التثبت وهذه

(١) الروح (٢٥٣) .

الدراسة لا تنتهي ولا تحسم بل قد تستمر إلى الموت مع الحاجة الماسة للدين وأهله لحسم الأمر وانتهاء الدراسة ، فماذا يعني هذا ؟!

ولذلك جاء في دعاء الرسول ﷺ : « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد »^(١) .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في شرح هذا الدعاء العظيم : « وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح ، وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما ، فما أتى أحد إلا من باب العجلة والطيش واستفزاز البداآت له ، أو من باب التهاون والتماوت وتضييع الفرصة بعد موافاتها ، فإذا حصل الثبات أولاً ، والعزيمة ثانياً أفلح كل الفلاح ، والله ولي التوفيق »^(٢) .

ويقول في موضع آخر :

« وأما الفرق بين الحزم والجبن ، فالحازم هو الذي قد جمع عليه همه وإرادته وعقله ووزن الأمور بعضها ببعض . فأعد لكل منها قرنه ، ولفظة الحزم تدل على القوة والإجماع ؛ ومنه حزمة الخطب ، فحازم الرأي هو الذي اجتمعت له شئون رأيه وعرف منها خير الخيرين وشر الشرين ، فأحجم في موضع الإحجام رأياً وعقلاً لا جبناً ولا ضعفاً :

العاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدر»^(٣)

وقال أيضاً : « والفرق بين المبادرة والعجلة ، أن المبادرة انتهاز الفرصة في

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٣ ، ١٢٥) ، والترمذي في الدعوات (٢٣) باب : سؤال الثبات في الأمر (ح ٣٤٠٤) (٩/١١١) ، والنسائي (٣/٥٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١٥٤) .

(٣) الروح (٢٣٧) .

وقتها ولا يتركها حتى إذا فاتت طلبها ، فهو لا يطلب الأمور في أديارها ولا قبل وقتها، بل إذا حضر وقتها بادر إليها ووثب عليها وثوب الأسد على فريسته ، فهو بمنزلة من يبادر إلى أخذ الثمرة وقت كمال نضجها وإدراكها .

والعجلة طلب أخذ الشيء قبل وقته ؛ فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها .

فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين : أحدهما: التفريط والإضاعة ، والثاني : الاستعجال قبل الوقت . ولهذا كانت العجلة من الشيطان ؛ فإنه خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم ، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها ، وتجلب عليه أنواعاً من الشرور ، وتمنعه أنواعاً من الخير ، وهي قرين الندامة ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفتور والإضاعة ^(١) اهـ .

ومما يتعلق بهذه الصورة أيضاً ولو من بعيد ما تُزيّن النفس والشيطان لبعض الطيبين من تشبيطه عن الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة الانشغال بطلب العلم وتربية النفس ، فإن كان الدافع إلى هذه المغالطة هو الشبهة ، فإن الأمر هين ، وعلاجه بأن يقال لمن هذا تفكيره : إن طلب العلم والتفقه في دين الله عز وجل أمر مطلوب ، والتساهل فيه لا يجوز بحال ؛ لأنه العاصم بإذن الله من الانحراف ، ولكن ألم تعلم أن اقتضاء العلم العمل ، وأنه لا قيمة للعمل الذي لا يعمل به صاحبه ويدعو إليه ؟ وكذلك ألم تقرأ سورة العصر ، وما جاء فيها من صفات الناجين من الخسران ، وأنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه؟

أما إذا كان الدافع إلى هذا اللبس والتزيين هو الشهوة والكسل وإيثار الراحة والسلامة؛ فإن الأمر أشد وعلاجه أصعب؛ لأن هذا المغالط يعرف من نفسه الضعف والركون إلى الراحة، لكن بدلاً من أن يعترف بهذا الضعف ويسعى لرتقه وإصلاحه، فإنه يعزي نفسه ويظهر لغيره أن طلب العلم والانشغال بالنفس مقدم على دعوة الغير، وهذا حق أريد به باطل. نسأل الله عز وجل أن يعيذنا من شرور أنفسنا وشر الشيطان وشركه.

٤- المداهنة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح :

إن الخلط بين المداراة والمداهنة والتساهل في الولاء والبراء بحجة التسامح؛ إن كل ذلك تنتج عنه آثار خطيرة على الدين وأهله، وذلك بما يفرزه هذا الخلط واللبس من المغالطة والتضليل على الأمة في أن ما يقع من الملبسين من مداهنة وموالاتة لأعداء هذا الدين إنما هو مداراة ويقصد منه مصلحة الأمة، وكذلك إظهار محاسن هذا الدين، وما فيه من التسامح وحبه للصالح والسلام ونبذته للعنف والشدة، وغير هذا من المبررات والمغالطات التي يغطي بها الملبس عواره من المداهنة والموالاتة لأعداء الله. وإيضاحاً لهذا الأمر أنقل كلاماً لبعض أهل العلم يزيل اللبس في مسألة المداراة والمداهنة، ومسألة الولاء والتسامح.

قال البخاري رحمه الله تعالى في باب المداراة مع الناس: «ويذكر عن أبي الدرداء: إنا نكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم. وعن عائشة رضي الله عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل، فقال: «اقدنوا له فبئس ابن العشيرة» أو «بئس أخو العشيرة»، فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله، قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول، فقال: «أي عائشة، إن شر الناس منزلة عند الله من تركه - أو ودعه - الناس اتقاء فحشه»^(١) اهـ.

ويعلق ابن حجر رحمه الله تعالى على حديث عائشة بقوله: قال ابن بطال: «المدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة» .

وظن بعضهم أن المدارة هي المداينة فغلط؛ لأن المدارة مندوب إليها، والمداينة محرمة، والفرق أن المداينة من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق، وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. والمدارة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل لا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك» (٢) اهـ .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في الفرق بين المدارة والمداينة وخطورة الخلط بينهما:

« وكذلك المدارة صفة مدح، والمداينة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق، أو يرده عن الباطل، والمداين يتلطف به ليقره على الباطل ويتركه على هواه، فالمدارة لأهل الإيمان، والمداينة لأهل النفاق، وقد ضرب لذلك مثل مطابق وهو حال رجل به قرحة قد آلمته فجاءه الطبيب المداوي الرفيق فتعرف عليها، ثم أخذ في تليينها حتى إذا نضجت أخذ في بطها برفق وسهولة، حتى أخرج ما فيها، ثم وضع على مكانها من الدواء والمراهم ما يمنع فسادها ويقطع مادته، ثم تابع عليها

(١) أخرجه البخاري- كتاب الأدب (٨٢) باب: المدارة مع الناس (ح ٦١٣١) [فتح (٥٤٤/١٠)].

(٢) الفتح (٥٤٥/١٠).

بالمراهم التي تنبت اللحم ، ثم يذر عليها بعد نبات اللحم ما ينشف رطوبتها ، ثم يشد عليها الرباط ، ولم يزل يتابع ذلك حتى صلحت .

والمداهن قال لصاحبها: لا بأس عليك منها، وهذه لا شيء فاسترها عن العيوب^(١) بخرقه ، ثم أله عنها ، فلا تزال مادتها تقوى وتستحکم حتى عظم فسادها .

وهذا المثل أيضاً مطابق كل المطابقة لحال النفس الأمارة مع المطمئنة فتأمله ، فإذا كانت هذه حال قرحة بقدر الحمصة ، فكيف بسقم هاج من نفس أمارة بالسوء هي معدن الشهوات ومأوى كل فسق ، وقد قارنها شيطان في غاية المكر والخداع يعدها ويمنيها ويسحرها بجميع أنواع السحر حتى يخيل إليها النافع ضاراً والضار نافعاً، والحسن قبيحاً والقبيح جميلاً ، وهذا لعمر الله من أعظم أنواع السحر .

ولهذا يقول سبحانه: ﴿فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩] ، والذي نسبوا إليه الرسل من كونهم مسحورين هو الذي أصابهم بعينه، وهم أهله لا رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما أنهم نسبوهم إلى الضلال والفساد في الأرض والجنون والسفه ، وما استعاذت الأنبياء والرسل وأمرء الأمم من شر النفس الأمارة وصاحبها وقرينها الشيطان إلا لأنهما أصل كل شر وقاعدته ومنبعه، وهما متساعدان عليه متعاونان^(٢) اهـ .

من هذا البيان الشافي تبين حقيقة المداراة والمداهنة، وأنهما ضدان لا يجتمعان ؛ إذ إن المداراة صفة مدح ، وهي لأهل الإيمان ، بينما المداهنة صفة ذم ، وهي لأهل النفاق .

(١) (العيوب) كذا في الأصل ، ولعل الصواب هو : (العيون).

(٢) الروح ص ٢٣١ .

فهل بقي بعد هذا البيان مجال للالتباس في هذا الأمر؟ اللهم لا إلا عند مغالط مكابر يريد أن يستتر نفاقه وضعفه بلبوس الشرع، والشرع من ذلك بريء، ويعلم المغالط نفسه أنه ملبس ومكابر وليس على حق في استدلاله. ثم إن مكنم الخطر في هذا الخلط ليس في مدهانة الفساق وأهل المعاصي من المسلمين فحسب، وإنما الأخطر من ذلك هو مدهانة الكفار بمشاربهم المختلفة تحت غطاء المداراة ومصالحة الأمة حتى اهتز جانب الولاء والبراء، والذي هو الركن الركين في عقيدة التوحيد، وبدأ حاجز البغض للكفر وأهله يضعف، بل انهدم عند البعض؛ والسبب في ذلك الجهل بحقيقة المداراة والمدهانة والمغالطة فيهما عن علم وهوى.

والحديث عن هذا الموضوع يجبرنا إلى موضوع التسامح الديني واستخدامه مبرراً للتقريب بين الأديان، ومدهانة الكفار والسكوت عن باطلهم، أو تحسين مناهجهم والتحالف معهم. وبخاصة مع الكفار من أهل الكتاب بحجة تناصر أهل الأديان السماوية في محاربة الإلحاد، ومعلوم ما في هذا التلبيس والمغالطة من الخطر العظيم الذي يهدد العقيدة فضلاً عن الأخلاق والقيم.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى محذراً من هذا التميع والتلبيس:

«وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة أن نظن أن لنا وأهل الكتاب طريقاً واحداً نسلكه للتمكين للدين أمام الكفار والملحدين، فهم مع الكفار والملحدين إذا كانت المعركة مع المسلمين.»

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا في هذا الزمان، وفي كل زمان حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا في أيدي أهل الكتاب في

الأرض للوقوف في وجه المادية والإلحاد بوصفنا جميعاً أهل دين ، ناسين تعاليم القرآن كله ، وناسين تعليم التاريخ كله ، فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين : ﴿ هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١] .

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة، وكانوا لهم درعاً وردءاً ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتي عام . وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس ، وهم الذين شردوا المسلمين في فلسطين ، وأحلوا اليهود محلهم متعاونين في هذا مع الإلحاد والمادية ، وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين يُشردون المسلمين في كل مكان . . . في الحبشة والصومال وأريتريه ، ويتعاونون في هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية في يوغسلافية والصين والتركستان والهند ، وفي كل مكان .

ثم يظهر بيننا من يظن أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر ندفع به المادية الإلحادية عن الدين . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التي هي طابع الإسلام ، فظنوها دعوة الولاء الذي يحذر منه القرآن . . . إن هؤلاء لا يعيش الإسلام في حسهم ، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد في الأرض تقف في وجه عداوات أهل الكتاب اليوم ، كما وقفت له بالأمس الموقف الذي لا يمكن تبديله ؛ لأنه الموقف الطبيعي الوحيد .

إن نداء الله موجه إلى كل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة ﴿ الَّذِينَ

آمنوا ﴿ ، لقد نزل القرآن ليثبت الوعي اللازم للمسلم في المعركة التي يخوضها بعقيدته ، ولينشئ تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها ، المفاصلة التي لا تنهي السماح الخلقية ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنها تنهي الولاء الذي لا يكون في قلب المسلم إلا إلى الله ورسوله والذين آمنوا . . الوعي والمفاصلة اللذان لا بُدَّ منهما للمسلم في كل أرض ، وفي كل جيل ، فهذا مفرق الطريق ، وما يمكن أن يتميع حس المسلم في المفاصلة الكاملة بينه وبين كل من ينهج غير منهج الإسلام ، وبينه وبين كل من لا يرفع راية الإسلام ، ثم يكون في وسعه بعد ذلك أن يعمل عملاً ذا قيمة في الحركة الإسلامية الضخمة التي تستهدف أول ما تستهدف إقامة نظام واقعي في الأرض فريد ، يختلف عن كل الأنظمة الأخرى ويعتمد على تصور متفرد كذلك من كل التصورات الأخرى . .

إن الذين يحاولون تميع هذه المفاصلة الحاسمة باسم التسامح والتقريب بين أهل الأديان السماوية يخطئون في فهم معنى الأديان ، كما يخطئون في فهم معنى التسامح ، فالدين هو الدين الأخير وحده عند الله ، والتسامح يكون في المعاملات الشخصية ، لا في التصور الاعتقادي ولا في النظام الاجتماعي .

إنهم يحاولون تميع اليقين الجازم في نفس المسلم بأن الله لا يقبل ديناً إلا الإسلام ، وبأن عليه أن يحقق منهج الله الممثل في الإسلام ، ولا يقبل دونه بديلاً ، ولا يقبل فيه تعديلاً - ولو طفيفاً - هذا اليقين الذي ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] ، ﴿ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴿ [المائدة: ٤٩] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] .

وفي القرآن كلمة الفصل . ولا على المسلم من تمسح التميميين وتمييعهم
لهذا اليقين^(١) اهـ .

وقبل إنهاء الحديث عن هذه الصورة من صور التلبيس تجدر الإشارة إلى
جانب آخر من جوانب الخلط والتضليل له علاقة شديدة بصورتنا هذه ؛ ألا
وهو المغالطة باسم التسامح والعتو وحب السلام ، واستخدام هذه الصفات
في تمرير الذل والمهانة والسلام الدائم مع الكفار ، والتعايش السلمي وترك
الجهاد .

والعجيب الغريب ، والمضحك المبكي في هذا الأمر أن الذين يبحثون
في الشرع عما يغطون به خنوعهم واستسلامهم هم الذين أعرضوا عن الشرع
والحكم به والتحاكم إليه، ونبذوه وراءهم ظهرياً فما حاجتهم إلى الشرع
هذه المرة لولا التلبيس والتضليل ؛ قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا
إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠] .

وإن العجب ليبلى ذروته عند سماع من يقول : إن السلام والتعايش
السلمي مع الكفار ينطلق من خلق العفو والسماح وحب السلام !!
إنه لعجيب أن يبرر المرء ذلته ومهاتته بمبرر العفو والتسامح .

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن : أحمد فائز ٦٢ - ٦٤ .

إن العفو والتسامح يكون في الحقوق الخاصة عند القدرة على الانتقام ، أما أن يكون على حساب دين الأمة وعقيدها وقضاياها فلا يكون ذلك أبداً . ثم إن الاعتراف بالعجز والمهانة وبذل الجهد في التخلص منهما خير من تغطيتهما بغطاء العفو والتسامح ، ولكنها المغالطة والتلبس .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين العفو والذل أن العفو إسقاط حقدك جيداً وكرماً وإحساناً مع قدرتك على الانتقام ، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق ، بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس ؛ فهذا مذموم غير محمود ، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه ؛ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٩] .

فمدحهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك حتى إذا قدروا على من بغى عليهم وتمكنوا من استيفاء ما لهم عليهم ؛ ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح ، فقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] «^(١) .

٥- الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن الناس وإنفاق

المال في وجوه الخير :

وفي هذه الصورة مدخل خفي للشيطان يتسرب منه إلى نفس الإنسان ، ويبلغ اللبس في هذا الأمر من الخفاء بحيث لا يتفطن إليه إلا المجاهد لنفسه ، المفتش لقلبه الحذر الخائف من الدنيا وغرورها .

ومكمن اللبس هنا في أن التعفف عن الناس أمر مطلوب ويحثّ عليه الشرع في أكثر من آية وحديث ، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وبذل المال في أوجه البر المختلفة ، كل هذا حق لا ريب فيه ، لكن الشيطان لا يألو جهداً في إغواء بني آدم ، وجرهم إلى حزبه خطوة خطوة .

ولهذا فهو يبدأ مع الإنسان ليجره إلى الدنيا وغرورها من باب التعفف عن الناس ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف . . . إلخ ، ثم بعد ذلك وبعد انشغاله بالمال وطرق جمعه ومشاكله وشبهاته نبحت عن صاحبنا الذي كنا نراه في لقاءات الخير والدعوة إلى الله سبحانه فلا نراه إلا قليلاً .

وهكذا حتى يفتح على الدنيا ويركن إليها ، ويضع له الشيطان في كل واد من أوديتها شغلاً وهماً ، فيتشعب فيها الفكر ، ويتشتت فيها الذهن ، ويتحول المال المكتسب إلى استثمارات جديدة وتوسع في المباحات وإسراف في المآكل والمراكب والمساكن ، وقد كان الهدف في البداية هو التعفف والإسهام في وجوه الخير والبر .

والغريب في الأمر أن هذا المسكين عندما يُذكر بالآيات التي تحذر من الدنيا وسرعة زوالها وخطر الركون إليها ، فإنه بدلاً من أن يشعر بالخطر ويسعى لتدارك الأمر ؛ يصر على المغالطة واللبس ، ويقول : إن التعفف عن الناس مطلوب ولا بد للداعية أن يكون له مصدر يستغني به عن الناس وينفع به دعوته ويساهم به في الخير ، وهو يعلم أن قصده ليس هذا ، وإنما أراد تغطية حبه للدنيا والركون إليها بهذا الغطاء الشرعي الذي لم يراع الضوابط الشرعية فيه .

وقد يقول قائل: إذن ما العمل في مثل هذه الحالة وبخاصة لمن أراد صادقاً أن يتعفف عن الناس وأن ينفع دعوته بالمال؟

والجواب لا أملكه؛ لأنها معادلة صعبة يختلف حلها من شخص لآخر؛ ويكفي في حلها أن يعلم الله سبحانه من أنفسنا أننا نريد التعفف والبذل بصدق في سبيل الله سبحانه فعندئذ يعصمنا برحمته من فتنة الدنيا وزخرفها، ويخرجها من قلوبنا لتبقى في أيدينا.

وكل إنسان على نفسه بصيرة، وهو أدري بنيته وقصده، إن كان حقاً يريد التعفف ويخاف من الركون إلى الدنيا وأخطارها، أو كان مغالطاً كاذباً في ادعائه هذا. وإنما يظهر ذلك لتغطية حبه للدنيا وزينتها وامتعتها واللهث وراء جمعها. اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

وأختم الحديث حول هذه الصورة ببعض الآيات والأحاديث التي تحذر من الركون إلى الدنيا وزينتها.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال ﷺ: «فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما

تنافسوها وتلهيكم كما ألهمهم»^(١) .

وهذا التحذير قاله الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم ، وهم أزهدي الناس ، وفي زمان يغلب عليه الطهر والخير والكسب الحلال ، فماذا يقال لنا يا من نعيش في هذا العصر الذي يغلب عليه الفساد والكسب الحرام والشبهات الكثيرة المعقدة !؟

وأخيراً أرجو ألا يفهم من هذا الكلام ترك الدنيا لأهل الفساد ودعاة الشر يعبثون فيها ويسخرونها لفسادهم وأهوائهم ؛ كلا ، فلا بد لدعاة الخير والإصلاح أن يتعاونوا في تنمية المشاريع الخيرية والاستثمارات الخالية من الشبهات ، ويوجهونها لدعم الخير وأهله ، إن هذا أمر لا يجادل فيه أحد من المصلحين ، ولا يتعارض هذا الفهم مع ما سبق من التحذير من الدنيا ؛ لأن الكلام الذي قيل هناك كان متوجهاً إلى من يعمل في هذه الدنيا لنفسه ، ويغري نفسه ويغالطها بالبذل في سبيل الله عز وجل والجهاد في سبيله سبحانه ، والأمر ليس كما يقول وقريب من هذا الصنف من يذم الدنيا لا زهداً فيها ورغبة في الآخرة ، وإنما لأنه لم يحصل عليها .

٦- الاحتجاج ببسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل المحرمة

والأخذ بالرخص الشاذة للمذاهب :

إن من رحمة الله عز وجل علينا أن هدانا لهذا الدين القويم ؛ دين الإسلام الذي لا يقبل الله سبحانه من أحد ديناً غيره ، وجاءت شريعته الكاملة المطهرة لتحقيق مصالح العباد وتحفظها ، وتدرأ عنهم المفاسد وتحميهم منها في الدنيا

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق (٧) ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا . . . (٦٤٢٥) ،

ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦١) .

والآخرة .

ولقد قامت هذه الشريعة الربانية على رفع الحرج والمشقة ، وعلى اليسر في أمورها كلها ، ولو تتبعنا أحكام هذه الشريعة لرأيناها قائمة على ذلك ، ولا مكان هنا للتفصيل ؛ إذ ليس الغرض الحديث عن القواعد الشرعية ومقاصد الشرع ؛ فهذا تفصيله يوجد في مظانه من كتب أهل العلم ؛ كالقواعد لابن رجب ، والموافقات للشاطبي وغيرهما .

وإنما المراد من إيراد هذه المقدمة في هذه الصورة الإشارة إلى أن القول بيسر الشريعة وسماحتها حق لا شك فيه ، ولكن الاحتجاج بهذا التيسير على التحلل من أحكام الشريعة والتحايل عليها واتباع الهوى في الأخذ بالرخص والغرائب الفقهية الشاذة ، التي لا تستند إلى دليل صحيح ؛ كل هذا باطل وتلبيس وتضليل يرفعه أهل الأهواء الذين يتبعون الشهوات ، ويلوحدون به لتمرير فسادهم وشهواتهم ؛ يريدون بذلك تحلل المجتمع المسلم من أحكام الشريعة باسم التيسير وترك التشديد ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٢٧] .

ومن رحمة الله عز وجل أنه لم يكل مصالحي العباد إلى أهواء البشر وشهواتهم ؛ بل وضع سبحانه شريعة كاملة مبرأة من الجهل والهوى ، ومبرأة من النقص والقصور ؛ لأنها منه سبحانه اللطيف الخبير الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، ولو أن تقرير مصالحي العباد كان في أيدي البشر لحصل من ذلك شر وفساد كبير ؛ وذلك لما عليه البشر من الجهل والنقص والهوى والشهوة ، وهذا مشاهد في الواقع ؛ فالمجتمعات التي لا يحكمها شرع الله سبحانه وإنما تحكمها أنظمة البشر وقوانينهم نرى كم فيها

من الفساد والشر والظلم والاستعباد والضنك والضييق الذي تعج به الأرض
والسماوات ، وتبرأ منه الوحوش في البريات ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوْ
اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧١].

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« المقصد الشرعي في وضع الشريعة : إخراج المكلف عن داعية هواه
حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً. والدليل على ذلك
أمور :

أحدها : النص الصريح الدال على أن العباد خلقوا للتعبد لله والدخول
تحت أمره ونهيه ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾
مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] ، وقوله
تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾
[طه : ١٣٢] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١].

ثم شرح هذه العبادة في تفاصيل السورة كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ
تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ . . . إِلَى قَوْلِهِ :
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، وهكذا إلى تمام ما ذكر في السورة من
الأحكام .

وقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] ، إلى غير ذلك
من الآيات الآمرة بالعبادة على الإطلاق وبتفصيلها على العموم ، فذلك كله

راجع إلى الرجوع إلى الله في جميع الأحوال والالتقياد إلى أحكامه على كل حال وهو معنى التعبد لله .

والثاني : ما دل على مخالفة هذا القصد من النهي أولاً عن مخالفة أمر الله ، وذنم من أعرض عن الله وإيعادهم بالعذاب العاجل من العقوبات الخاصة بكل صنف من أصناف المخالفات والعذاب الآجل في الدار الآخرة ، وأصل ذلك اتباع الهوى والالتقياد إلى طاعة الأغراض العاجلة والشهوات الزائلة ؛ فقد جعل الله اتباع الهوى مضاداً للحق وعده قسيماً له كما في قوله تعالى : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

وقال في قسيمه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤١) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ، ٤١] .

وقال : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ، ٤] .

فقد حصر الأمر في شيئين : الوحي ؛ وهو الشريعة ، والهوى ؛ فلا ثالث لهما ، وإذا كان كذلك فهما متضادان ، وحين تعين الحق في الوحي توجه للهوى ضده ، فاتباع الهوى مضاد للحق .

وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾

[الجاثية : ٢٣]

وقال : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

[المؤمنون : ٧١]

وقال : ﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

[محمد: ١٦]

وقال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤] .

وتأمل ، فكل موضع ذكر الله تعالى فيه الهوى فإنما جاء به في معرض الذم له ولتبعيه . وقد روي هذا المعنى عن ابن عباس أنه قال : ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمه ، فهذا كله واضح في أن قصد الشارع الخروج عن اتباع الهوى والدخول تحت التبعد للمولى .

والثالث : ما علم بالتجارب والمعتقدات من أن المصالح الدينية والدينية لا تحصل مع الاسترسال في اتباع الهوى والمشى مع الأغراض لما يلزم في ذلك من التهاجر والتقاتل والهلاك الذي هو مضاد لتلك المصالح .

وهذا معروف عندهم بالتجارب والعادات المستمرة ؛ ولذلك اتفقوا على ذم من اتبع شهواته وسار حيث سارت به حتى إن من تقدم ممن لا شريعة له يتبعها ، أو كان له شريعة درست كانوا يقتضون المصالح الدينية بكف كل من اتبع هواه في النظر العقلي ، وما اتفقوا عليه إلا لصحته عندهم واضطراد العوائد باقتضائه ما أرادوا من إقامة صلاح الدنيا وهي التي يسمونها السياسة المدنية .

فهذا أمر قد توارد النقل والعقل على صحته في الجملة وهو أظهر من أن يستدل عليه .

وإذا كان كذلك لم يصح لأحد أن يدعي على الشريعة أنها وضعت على

مقتضى تشهي العباد وأغراضهم ؛ إذ لا تخلو أحكام الشرع من الخمسة : أما الوجوب والتحریم فظاهر مصادمتها لمقتضى الاسترسال الداخِل تحت الاختيار، إذ يقال له : افعل كذا كان لك فيه غرض أم لا ، ولا تفعل كذا كان لك فيه غرض أم لا . فإن اتفق للمكلف فيه غرض موافق وهوى باعث على مقتضى الأمر أو النهي فبالعرض لا بالأصل .

وأما سائر الأقسام وإن كان ظاهرها الدخول تحت خيرة المكلف فإنما دخلت بإدخال الشارع لها تحت اختياره ، فهي راجعة إلى إخراجها عن اختياره . ألا ترى أن المباح قد يكون له فيه اختيار وغرض ، وقد لا يكون ، فعلى تقدير أن ليس له فيه اختيار بل في رفعه مثلاً كيف يقال إنه داخل تحت اختياره ؛ فكم من صاحب هوى يود لو كان المباح الفلاني ممنوعاً ؛ حتى إنه لو وكل إليه مثلاً تشريعه لحرمه كما يطرأ للمتذرعين في حق . وعلى تقدير أن اختياره وهواه في تحصيله يود لو كان مطلوب الحصول، حتى لو فرض جعل ذلك إليه لأوجه .

ثم قد يصير الأمر في ذلك المباح بعينه على العكس، فيحب الآن ما يكره غداً وبالعكس ، فلا يستتب في قضية حكم على الإطلاق ، وعند ذلك تتوارد الأغراض على الشيء الواحد فينخرم النظام بسبب فرض اتباع الأغراض والهوى ؛ فسبحان الذي أنزل في كتابه ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١] اهـ^(١) .

إن الذين يتشدقون بالتيسير ويغالطون به بغير علم ولا هدى من الله سبحانه لو كان الأمر بأيديهم لعطلوا بأهوائهم كثيراً من أحكام الشريعة التي

(١) الموافقات: (١١٦/٢).

ينال المكلف فيها المشقة والضيق ، مع أن مآلها اليسر والسعادة في الدارين ؛ فحمداً لله عز وجل أنه لم يكل أمر تقرير المشقة والحرص والعسر واليسر إلى أهواء البشر ، إذن لفسدت الأرض ومن عليها ، ولعم الهلاك والظلم والشر كما هو الحال فيمن لا يحكمهم شرع الله .

لكن الله سبحانه الرحيم بعباده هو الذي يعلم ما يصلح شئونهم ، ويسر أمورهم ، ويعلم ما يشق عليهم وما لا يشق . إنه حكيم عليم ، ولنضرب على ذلك مثلاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

فمن دقائق التفسير في هذه الآية ما ذكره الشوكاني رحمه الله تعالى في فتح القدير تعليقاً على هذه الآية ؛ إذ يقول : « ثم لما كان في التكليف مشقة على النفس في بعض الحالات قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أي ضيق وشدة » اهـ .

من هذا التعليق ندرك أن الجهاد وإن كان فيه تكليف ومشقة على النفس لكن الله سبحانه شرعه تيسيراً للعباد ورفعاً للحرص عنهم ، نعم في الجهاد مشقة وضيق على المجاهدين ، لكن بالقياس إلى غاية الجهاد وهي أن يكون الدين كله لله سبحانه ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إذا قيست هذه الغاية وهذه التيسيرات ورفع المشقات الكبيرة والحرص الشديد عنهم والتي لا تتحقق إلا بالجهاد ؛ فإن الحرج القليل لا يساوي شيئاً ما دام أن الحرج العظيم والعنت الشديد الذي تعانيه البشرية في ظل عبودية البشر سيزول بالجهاد في سبيل الله ؛ الجهاد الذي لا يكون الدين كله لله إلا

به ، فماذا تساوي المعاناة عندئذ ، وماذا تساوي التضحيات ؟ إنها لا تساوي شيئاً إذا قيست بإسعاد الملايين من البشر في ظل الإسلام ، وبالفوز برضوان الله سبحانه في جنات النعيم .

إذن من خلال المثال السابق يتبين لنا كيف أن الله سبحانه شرع الجهاد لرفع الحرج ، بينما أهل الأهواء والشهوات يرون فيه حرجاً ومشقة ، ولا يذهبون إلى ما وراء هذا الحرج الظاهري .

والأمثلة في ذلك - غير الجهاد في سبيل الله - كثيرة ، وكلها تدل على أن الوسيلة التي يحكم بها على أن في هذا الأمر مشقة أو تيسيراً هي ما جاء عن الله سبحانه أو رسوله ﷺ ، ولا دخل لعقول البشر وأهوائهم في تحديد ذلك إلا ما كان منضبطاً في إطار مقاصد الشرع وقواعده .

يقول الشاطبي رحمه الله تعالى :

« وذلك أن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها ، وصعب خروجها عنه ، ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم ، وكفى شاهداً على ذلك حال المحيين ، وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ، ولم يرضوا بمخالفة الهوى ، حتى قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] ، وقال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٤] وما أشبه ذلك .

ولكن الشارع إنما قصد بوضع الشريعة إخراج المكلف عن اتباع هواه حتى يكون عبداً لله . فإذا مخالفة الهوى ليست من المشقات المعتبرة في التكليف ، وإن كانت شاقة في مجاري العادات إذ لو كانت معتبرة حتى يشرع التخفيف لأجل ذلك لكان ذلك نقضاً لما وضعت الشريعة له ، وذلك باطل ، فما أدى إليه مثله . وبيان هذا المعنى مذكور بعد إن شاء الله^(١) .

بعد هذه النقول المتفرقة من كتاب الموافقات للشاطبي نعود إلى أولئك الذين يحتجون بيسر الشريعة وترك التشديد لتبرير أخذهم بالرخص من كل مذهب ؛ فنسأل هؤلاء القوم : ماذا تقصدون باليسير والتشديد؟

فإن كانوا يقصدون التحلل من كل ما تقترب به المشقة من الأحكام ولو جاء الدليل على مشروعيتها ، فإن هذا هو التلبس والتضليل ؛ حيث لم يكن رائدهم في ذلك هو الدليل ، وإنما هو الهوى والشهوة ، لكنهم لا يريدون الاعتراف بذلك ، وإنما يغطون أهواءهم وشهواتهم بشبهة التيسير ورفع الحرج ، أو أن في المسألة قولاً ما لأحد العلماء .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

« وروى البيهقي عن الحاكم عن حسان بن محمد عن ابن سريج عن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال : « دخلت يوماً على المعتضد فدفع إلي كتاباً فقرأته فإذا فيه الرخص من زلل العلماء - قد جمعها له بعض الناس - فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنما جمع هذا زنديق ، فقال : كيف ؟ قلت : إن من أباح المتعة لم يبح الغناء ، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو ، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه ، فأمر بتحريق ذلك

(١) الموافقات (٢/١٠٣) .

الكتاب»^(١).

ويرد الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات على من يحتج بوجود الخلاف في مسألة ما على إباحتها دون النظر إلى الدليل فيقول :

« (فصل) وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة . ووقع فيما تقدم وتأخر في الزمان الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفاً فيه بين أهل العلم ، لا بمعنى مراعاة الخلاف فإن له نظراً آخر ، بل في غير ذلك . فربما وقع الإفتاء في المسألة بالمنع ، فقال : لم تمنع والمسألة مختلف فيها ؟ فيجعل الخلاف حجة في الجواز لمجرد كونها مختلفاً فيها لا للدليل يدل على صحة مذهب الجواز ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع . وهو عين الخطأ على الشريعة حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمداً وما ليس بحجة حجة .

حكى الخطابي في مسألة البتخ^(٢) المذكور في الحديث عن بعض الناس أنه قال : إن الناس لما اختلفوا في الأشربة وأجمعوا على تحريم خمر العنب ، واختلفوا فيما سواه حرماً ما اجتمعوا على تحريمه وأبحننا ما سواه .

قال : وهذا خطأ فاحش ، وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول . قال : ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل للزم مثله في الربا والصرف ونكاح المتعة ؛ لأن الأمة قد اختلفت فيها . قال : وليس الاختلاف حجة ، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين

(١) البداية والنهاية (١١/٨٧) .

(٢) بكسر فسكون : نبيذ يتخذ من غسل كأنه الخمر صلابه ، وفي الحديث : سئل عن البتخ ، فقال : « كل مسكر حرام » .

والآخرين . هذا مختصر ما قال .

والقائل بهذا راجع إلى أن يتبع ما يشتهي ويجعل القول الموافق حجة له ويدرأ بها عن نفسه ؛ فهو قد أخذ القول وسيلة إلى اتباع هواه لا وسيلة إلى تقواه، وذلك أبعد له من أن يكون ممتثلاً لأمر الشارع وأقرب إلى أن يكون ممن اتخذ إلهه هواه .

ومن هذا أيضاً: جعل بعض الناس الاختلاف رحمة للتوسع في الأقوال وعدم التحجير على رأي واحد، ويحتج في ذلك بما روي عن القاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهما مما تقدم ذكره^(١) ، ويقول: إن الاختلاف رحمة ، وربما صرح صاحب هذا القول بالتشنيع على من لازم القول المشهور أو الموافق للدليل أو الراجح عند أهل النظر والذي عليه أكثر المسلمين ، ويقول له: لقد حجرت واسعاً ، وملت بالناس إلى الحرج ، وما في الدين من حرج ، وما أشبه ذلك ، وهذا القول خطأ كله وجهل بما وضعت له الشريعة . والتوفيق بيد الله « اهـ^(٢) .

وقبل الانتقال من هذه الصورة من صور التلبس تجدر الإشارة إلى أمر مهم يتعلق بها، ألا وهو الاحتجاج بضغط الواقع وتغييره للتحلل من بعض الأحكام الشرعية؛ مرة بتأويل الأدلة وتحريفها عن مواضعها ، ومرة بحجة الضرورات ، ومرة بالاستناد على قاعدة: تغير الفتوى بتغير الحال والزمان والمكان والعوائد . وهذا كله من التلبس والتضليل للفتل من الشرع المطهر خطوة خطوة .

(١) راجع الموافقات (٤/٦٦).

(٢) الموافقات (٤/٧٨، ٧٩).

ولو أن الذين يطرحون قاعدة الضرورات وتغيير الفتوى كانوا من العلماء الأتقياء المشهود لهم بالصلاح ، والذين يعرفون ضوابط الضرورة وحدودها ، ويعرفون معنى تغير الفتوى بتغير الأحوال ، لكان لهذا الطرح وجه واعتبار . وسواء أخطأ المجتهد في ذلك أم أصاب ؛ لأن قاعدة الضرورات وقاعدة تغير الفتوى بتغير الحال قاعدتان معتبرتتان شرعاً بضوابطهما الشرعية .

وإن المتناول لهذه القواعد مع ما يستجد من مستجدات في الواقع إذا كان من أهل العلم وكان متجرداً لله عز وجل ، وطالباً للحق فإنه يوفق في الغالب إلى الحق والصواب ، ولو أخطأ فهو مأجور إن شاء الله تعالى على اجتهاده .

أما أن يأتي ملبس مضلل لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ، بلا علم ولا تقوى من الله سبحانه ، ويريد أن يحتج بهذه القواعد للتحلل من الشرع ومسايرة الواقع ، فهذا مما يرفضه الشرع ويأباه ؛ لأن نهايته السير بأحكام الله عز وجل حسب أهواء الناس وشهواتهم ، وما ألفوه في واقعهم .

وما جاء هذا الدين إلا ليخرج الناس من ظلمات الشرك والأخلاق السيئة وما ألفوه في بيئاتهم وتوارثوه عن آبائهم ، إلى نور التوحيد والأخلاق الكريمة ، وهذا يحتاج بلا شك إلى جهد وصبر على مواجهة أعراف الناس وتقاليدهم وعدم اليأس من تغييرها ، ولو تُرك الناس وما ألفوه واعتادوه من أعراف جاهلية ، وما استجد في مجتمعاتهم من أخلاق هابطة لكن في ذلك من العنت والشقاء في حياتهم ما لا يعلمه إلا الله سبحانه

هذا في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في معنى : ﴿ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] :

« ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملبساً غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح ، فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع ؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس ، ما لم تعتصم منه بدين واضح ، وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة ، وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة ، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . هذه العادات أو التقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفراً ، هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً ، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة ، وتآكل حياتهم واهتماماتهم ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم .

ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . أزياء الصباح وأزياء بعد الظهر ،
وأزياء المساء . . والأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة !
 وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذل ؛ من
الذي يصنعه ، ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء ، وتقف
وراءه شركات الإنتاج ، ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من
الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها !

ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! ،
ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات
والقيم التي ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات ، ويطلقونها تضغط
على الناس في صورة (عرف اجتماعي) ، فهم يعلمون أن النظريات وحدها
لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ، وأوضاع مجتمع ، وفي عرف
اجتماعي غامض لا يناقشه الناس ؛ لأنه ملتبس عليهم ، متشابكة جذوره
وفروعه ! إنه فعل الشياطين ؛ شياطين الإنس والجن ، وإنها الجاهلية تختلف
أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها .

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن
جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة ،
ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم «^(١) .

٧- التشهير بالدعاة والمصلحين واغتيالهم بحجة النصيحة والتحذير

من الأخطاء :

عن أبي برزة الأسلمي والبراء بن عازب رضي الله عنهما قالا : قال

(١) الظلال (٣/١٢١٩) .

رسول الله ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ! لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته »^(١) .

إن التنبيه على الأخطاء والمخالفات الشرعية أمر مطلوب إذا روعي في ذلك التجرد والانضباط بالشرع في معالجة الأخطاء .

وليس المقصود في هذه الصورة الحديث عن الغيبة وحرمتها ودورها في إثارة الشحناء والبغضاء ؛ فهذا كله معروف وموجود في مظانه من كتب أهل العلم ، وإنما المقصود من هذه الصورة هو الحذر من تزوين الشيطان وتلييسه في إظهار الغيبة أو النميمة أو التشهير في قالب النصيحة والتحذير من الأخطاء والغيرة على دين الله وتعظيم حرمة الله عز وجل ؛ إن هذا هو الخطير في الأمر ؛ إذ لو أن الواقع في الغيبة أو النميمة أقر بذنبه واعترف بتقصيره واستغفر لذنبه لكان الأمر أهون ، أما أن يكابر ويلبس على نفسه وعلى الناس بأن قصده النصيحة للأمة وتحذيرها من الأخطاء وهو يعلم من نفسه غير ذلك من التشفي أو الحسد ، أو التهوين من شأن من وقع منه الخطأ وتنفير الناس عنه ؛ فكل ذلك من المغالطة وتلييس الشيطان وتزوينه .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والفرق بين النصيحة والغيبة ، أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع أو فتنان أو غاش أو مفسد ، فتذكر ما فيه إذا استشارك في

(١) أخرجه أبو داود بنحوه - كتاب الأدب ٤٠ ، باب : في الغيبة (ح ٤٨٨٠) (٥/١٩٤) ، وأحمد في المسند واللفظ له : (٤/٤٢٠) ، وقال الألباني : حسن صحيح [صحيح أبي داود (٤٠٨٣) (٣/٩٢٣)] .

صحبه ومعاملته والتعلق به ، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم ، فقال : «أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»^(١) ، وقال لبعض أصحابه لمن سافر معه : إذا هبطت عن بلد قومه فاحذره .

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات ، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك وتمزيق عرضه والتفككه بلحمه والغض منه لتضع منزلته من قلوب الناس فهي الداء العضال ونار الحسنات التي تأكلها كما تأكل النار الحطب»^(٢) .

وقال أيضاً :

« والفرق بين النصيحة والتأنيب ، أن النصيحة إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة له وعليه ؛ فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ، ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ، ويحتمل أذى المنصوح ولائمه ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق للمريض المشيع مرضاً ، وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرتة ، ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن ، فهذا شأن الناصح .

وأما المؤنب فهو رجل قصده التعيير والإهانة وذم من أنبه وشتمه في

(١) أخرجه مسلم. كتاب الطلاق (٦) باب : المطلقة ثلاثاً لأنفقة لها (١٤٨٠) :

(٢/١١١٤) ، ومالك في الموطأ. كتاب الطلاق (٢٣) ، باب : ما جاء في نفقة المطلقة (٦٧)

(٢/٥٨٠) .

(٢) الروح (٢٤٠) .

صورة النصح ، فهو يقول له : يا فاعل كذا وكذا ، يا مستحقاً الذم والإهانة ، في صورة ناصح مشفق ، وعلامة هذا أنه لو رأى من يحبه ويحسن إليه على مثل عمل هذا أو شر منه لم يعرض له ولم يقل له شيئاً ، ويطلب له وجوه المعاذير ؛ فإن غلب قال : ومن ضمننت له العصمة ، والإنسان عرضة للخطأ ، ومحاسنه أكثر من مساوئه ، والله غفور رحيم ، ونحو ذلك .

فيا عجباً ! كيف كان هذا لمن يحبه دون من يبغضه ، وكيف كان حظ ذلك منك التائب في صورة النصح ، وحظ هذا منك رجاء العفو والمغفرة وطلب وجوه المعاذير .

ومن الفروق بين الناصح والمؤنب ، أن الناصح لا يعاديك إذا لم تقبل نصيحته ، ويقول : قد وقع أجري على الله قبلت أو لم تقبل ، ويدعو لك بظهر الغيب ، ولا يذيع عيوبك ولا يبينها في الناس ، والمؤنب ضد ذلك^(١) اهـ .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

« ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتى ؛ تارة في قالب ديانة وصلاح ؛ فيقول : ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير ، ولا أحب الغيبة ولا الكذب ، وإنما أخبركم بأحواله ، ويقول : والله إنه مسكين ، أو رجل جيد ، ولكن فيه كيت وكيت ، وربما يقول : دعونا منه ، الله يغفر لنا وله ، وإنما قصده استنقاصه وهضم لجنابه .

ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة ؛ يخادعون الله بذلك كما

(١) الروح (٢٥٨) .

يخادعون مخلوقاً ، وقد رأينا فيهم ألواناً كثيرة من هذا وأشباهه . . . إلى أن قال : وربما يذكره عند أعدائه ليتشفوا به ، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله وخلقها ، ومنهم من يظهر الغيبة في قالب غضب وإنكار منكر ؛ فيظهر في هذا الباب أشياء من زخارف القول ، وقصده غير ما أظهر . والله المستعان»^(١) اهـ .

ويتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين من كان غضبه لله عز وجل في تعظيمه لحرمة الله ، وبين من يريد تعظيم نفسه ونفاذ كلمته فيقول :
« وكذلك القوة في أمر الله هي من تعظيمه وتعظيم أوامره وحقوقه حتى يقيمها الله ، والعلو في الأرض هو من تعظيم نفسه ، وطلب تفردا بالرياسة ونفاذ الكلمة سواء عز أمر الله أو هان ، بل إذا عارضه أمر الله وحقوقه ومرضاته في طلب علوه لم يلتفت إلى ذلك وأهدره وأماته في تحصيل علوه .

وكذلك الحمية لله والحمية للنفس ؛ فالأولى يثيرها تعظيم الأمر والأمر ، والثانية يثيرها تعظيم النفس والغضب لفوات حظوظها ؛ فالحمية لله أن يحمي قلبه له من تعظيم حقوقه ، وهي حال عبد قد أشرق على قلبه نور سلطان الله ، فامتلاً قلبه بذلك النور ؛ فإذا غضب فإنما يغضب من أجل نور ذلك السلطان الذي ألقى على قلبه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا غضب احمرت وجنتاه ، وبدا بين عينيه عرق يدره الغضب ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه أن موسى بن عمران صلى الله عليه وآله

وسلم كان إذا غضب اشتعلت قلوبته ناراً^(١) ؛ هذا بخلاف الحمية للنفس ؛ فإنها حرارة تهيج من نفسه لفوات حظها أو طلبه ؛ فإن الفتنة في النفس والفتنة هي الحريق والنفس متلظية بنار الشهوة والغضب ؛ فإنما هما حرارتان تظهران على الأركان : حرارة من قبل النفس المطمئنة ، أثارها تعظيم حق الله ، وحرارة من قبل النفس الأمانة أثارها استشعار فوت الحظ^(٢) اهـ .

وبعد هذه النقول القيمة لهذين الإمامين الجليلين والتي تنطق بما فيها ؛ لم يبق عذر لمعتذر ، ولا مدخل للملبس ومغالط في إظهار حقه وتشفيه وحميته لنفسه في قالب النصح والديانة .

وكل إنسان أدرى بنفسه وقصده ، ولكن يبقى هناك بعض القرائن التي تكشف هذا اللبس والخداع في نفس المدعي للنصح والديانة منها :

١ - التشهير والتعيير بالمنصوح ؛ خاصة إذا كان من المصلحين وأهل العلم .

٢ - الظلم والتعدي وعدم الإنصاف مع المنصوح ، وبخسه حقه وإخفاء خيره وحسناته .

٣ - عدم الثبوت والأخذ بالشائعات وتصيد الأخطاء والفرح بها .

٤ - تغليب سوء الظن وتفسير المقاصد بدون دليل وبرهان .

٥ - أن يكون قد عرف عنه الكذب وقلة الورع .

٦ - المداهنة للظالمين والركون إليهم .

(١) هذه الرواية لا يُدرى عنمن أخذها أسلم ، وأظنها عن أهل الكتاب ، والله أعلم بصحتها .

(٢) الروح (٢٣٤) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

٨- التلبس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها الكيد

للدين وأهله :

إن من أخطر ما يهدد الأمة في عقيدتها وأخلاقها أن تعيش في جو من اللبس والتضليل والخداع، فلا ترى الحق بصورته المضيئة، ولا الباطل بصورته القاتمة المظلمة، بل قد يصل بها المكر والخداع إلى أن ترى غالبيتها الحق باطلاً والباطل حقاً، ويلتبس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين .

ومن أعظم الالتباس بين السبيلين أن يقوم المجرمون من أعداء المسلمين - سواء من الكفار الصرحاء، أو المنافقين الدخلاء - برفع لافتات ظاهرها الإسلام، ومحبة الدين والدعوة إليه، وباطنها الكيد والمكر والخداع، ويحصل من جراء ذلك أن ينخدع كثير من المسلمين بهذه اللافتات فينشغلون بها، ويثنون على أهلها بدلاً من فضحها وكشف عوارها وتعرية باطلها .

وعن خطورة التباس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين؛ يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب : إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية .

وهذا من كمال علم عمر رضي الله عنه؛ فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها - وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية؛ فإنها

منسوبة إلى الجهل . وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل - فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستين له أو شك أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين ، كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل ؛ هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل ، أدخلها من لم يعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين ودعا إليها وكفر من خالفها واستحل منه ما حرمه الله ورسوله «^(١) اهـ .

وقد قص الله سبحانه علينا في كتابه الكريم قصة نفر من المنافقين أرادوا خداع الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين برفع لافتة إسلامية على صرح من صروح النفاق ، لكن الله عز وجل فضحهم وفضح لافتتهم ، وعرّى باطلهم ؛ ليكونوا عبرة للمسلمين في وقتهم ، وعبر التاريخ الطويل لمن يأتي بعدهم ممن يرفع لافتة إسلامية يخفي وراءها خبيثه ومكره ليكيد بها للإسلام والمسلمين في أي زمان ومكان .

وهذه القصة ذكرها الله سبحانه في سورة التوبة بما يعرف بمسجد الضرار؛ حيث أنزل فيها قرآناً يتلى إلى قيام الساعة، قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُمْ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَقْمِنَ أُسْسَ بِنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسْسَ بِنْيَانِهِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي

(١) الفوائد (١٠٩) .

بَنَوْا رِبَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ١٠٧ - ١١٠﴾.

ولإيضاح هذه الصورة يحسن ذكر قصة هذا المسجد كما ذكرها أهل السير، قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى :

« ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة والليله الشتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : « إني على جناح سفر ، أوحال شغل - أو كما قال ﷺ - ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه » .

فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبير المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ، أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، أو أخاه عاصم بن عدي ، أخا بني العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ... الآيات ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠] «^(١) اهـ .

ويعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على ما نزل في خبر هذا المسجد من الآيات ، فيقول :

« هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويبه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتسر وراءها وهي ترمي هذا الدين ، وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق! . . . وتتخذ في صور شتى كثيرة ، ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه ، يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح . . . وذكر الآيات السابقة من سورة التوبة - ثم قال :

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ؛ وكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة ، وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين»^(١) .

مما سبق من ذكر القصة والتعليق عليها يتبين لنا أهمية الوعي لمكر الأعداء ولافتاتهم البراقة الخادعة ، وأنه يجب على المسلم أن يكون على

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٧٢١) . (باختصار).

مستوى من الفطنة والحذر لألاعيب المجرمين وخدعهم ، وألا تغلب عليه السذاجة والغفلة فينخدع مع المنخدعين ، وبالتالي فإنه قد يساهم بشكل أو بآخر في التضليل والتلبيس شاء أم أبى .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

« والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لست بخب ولا يخدعني الخب . وكان عمر أعقل من أن يُخدع ، وأورع من أن يخدع»^(١) اهـ .

والخب هو اللئيم المخادع ، وعمر رضي الله عنه لم يكن لئيماً ، ولكنه كان خبيراً بأخلاق اللئام .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى :

« إن هذا الدين يغلب دائماً عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصابة المؤمنة في أي زمان وفي أي مكان . والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامناً في أن يكون له أعداء أقوياء وأعوان مدربون ، بقدر ما يمكن أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتخرجون في غير تخرج ، ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام ، بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة .

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هذه الأوضاع لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعاً .

وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف، وإظهارها على حقيقتها شركاً وكفراً . . ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة ، بل كيما يتبته هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ، عسى أن يوظفهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ؛ ليغير الله ما بهم ، من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذي هم فيه مبلسون .

وكل تحرُّج في غير موضعه، وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات؛ هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأية حركة إسلامية في الأرض جميعاً . وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكروهم الذي أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات» اهـ^(١) .

واللافتات المرفوعة اليوم كثيرة وماكرة ، أقتصر على بعض الأمثلة :

منها : ما يرفعه الذين بدلوا شرع الله عز وجل ورفضوا التحاكم إليه في بلادهم من لافتات يخدعون بها شعوبهم المسلمة ، كأن يعلنوا الاحتفال بمولد الرسول ﷺ أو بالهجرة أو بالإسراء والمعراج ، وهم في حقيقة الأمر أعداء الرسول ﷺ ، وأعداء الهجرة ، وأعداء الإسراء والمعراج . ومع ذلك يوجد من مغفلي الأمة من المسلمين من ينخدع بلافتاتهم التي يرفعونها باسم الدين ويثني عليهم بذلك .

ومن ذلك إقامة الذكرى السنوية لإحراق المسجد الأقصى المبارك ، فنرى هؤلاء المجرمين الخائنين لله سبحانه ورسوله ﷺ يخدعون المسلمين

بإحياء ذكرى حرق المسجد الأقصى كأنهم يهتمون بالإسلام وبالمسلمين ومقدساتهم وهم قد خانوا الله سبحانه من قبل بتنحية شريعته واستحلال محرّماته ، وخانوا أمتهم وأوطانهم بعد ذلك بالتذلل والخنوع لليهود والنصارى .

ولقد أعجبني جملة قالها الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله تعالى في شريط مسجل حول هذا المعنى ؛ إذ يقول :

« إن إحراق المسجد الأقصى بل إحراق مساجد الدنيا كلها ليس أعظم جرماً من الاعتداء على شرع الله وحكمه وسلطانه في الأرض من قبل الأنظمة التي تتباكى على الأقصى وإحراقه » .

ومن اللافتات التي يخدعون بها الناس : إقامة المؤتمرات الإسلامية والمحافل الإسلامية والتي تأتي هذه الأنظمة المتكبرة لشرع الله عز وجل لترعاها وتدعو الناس إليها ، كل هذا من الخداع والتضليل الذي نربأ بالمسلمين - فضلاً عن الدعاة والمصلحين - أن ينطلي عليهم ، بل يجب التفتن إليه والسعي لكشفه وتعريته ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .



المبحث الخامس الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل

بعد أن تبين لنا خطورة لبس الحق بالباطل من خلال الصور السابقة في المبحث الماضي ، والتي هي على سبيل المثال لا الحصر ، وبعد ظهور ما ينتج عنها من الضلال والانحراف الذي يورث العواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة ، بعد هذا البيان يحق لنا بل يجب علينا أن نسأل : كيف النجاة من هذا الخطر ، وما هي الأسباب الواقية من ذلك ؟

وللإجابة على ذلك نرجع إلى المبحث الثالث ؛ حيث ذكرت هناك أسباب التباس الحق بالباطل ، فمنها ينطلق العلاج ؛ لأن الأشياء تعرف بأضدادها غالباً ، والله أعلم .

وقد مر بنا في مبحث أسباب الالتباس أن الأسباب لا تخرج عن ثلاثة أمور :

١ - شبهة تسببت في أخذ الباطل على أنه الحق . وأصل هذه الشبهة هو الجهل .

٢ - شهوة تسببت في أخذ الباطل وترك الحق عن ضعف وشهوة ، مع اعتراف بالخطأ .

٣ - شهوة وشبهة نتج عنهما أخذ الباطل وإظهاره في صورة حق عن هوى ومغالطة ، استناداً على شبهة يعلم صاحبها أنها لا تصلح للاستدلال .

وبعد هذه المقدمة التي لا بد منها بين يدي الأسباب الواقية من اللبس والتلبس، يمكن تفصيل هذه الأسباب فيما يلي :

١- علم وبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه :

وعلم وبصيرة بما يضاد دين الله عز وجل وشرعه ؛ فإذا تحقق هذان الأمران ؛ فإن الاستبانة لسبيل المؤمنين وسبيل المجرمين قد تحققت ، وبهذا فلا مجال للشبهة هنا أبداً لانتفاء الجهل الذي منه تنور الشبهات المؤدية إلى اللبس والتلبس .

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر ، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

وجمع بينهما أيضاً في قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣] ، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات ، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات ، وجمع بينهما في قوله : ﴿ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥] .

فالأيدي : القوي والعزائم في ذات الله ، والأبصار : البصائر في أمر الله، وعبارات السلف تدور على ذلك .

قال ابن عباس : « أولي القوة في طاعة الله ، والمعرفة بالله » .

وقال الكلبي : « أولي القوة في العبادة ، والبصر فيها » .

وقال مجاهد : « الأيدي : القوة في طاعة الله ، والأبصار : البصر في الحق » .

وقال سعيد بن جبير : « الأيدي : القوة في العمل ، والأبصار : بصرهم بما هم فيه من دينهم » .

وقد جاء في حديث مرسل : « إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات »^(١) .

فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة ، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة ، والله المستعان^(٢) اهـ .

ويقول أيضاً : « ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، وما يُثبت به الله من الصفات والأفعال والأسماء وما ينفيه عنه ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ، ووجوب الوضوء والغسل »^(٣) اهـ .

ويقول رحمه الله تعالى :

« والمقصود أن أرباب البصائر هم أصحاب الفرقان ، فأعظم الناس فرقاناً بين المشتبهات أعظم الناس بصيرة ، والتشابه يقع في الأقوال والأعمال

(١) رواه أبو نعيم في الحلية ، وفيه حفص بن عمر العدني ، ضعفه الجمهور ، وانظر تخريج أحاديث الإحياء (٣٨٥٨) (٦/٢٤٣٨) .

(٢) إغائة اللفهان (١٦٧/٢) .

(٣) إغائة اللفهان (١٦٥/٢) .

والأحوال والأموال والرجال . وإنما أتى أكثر أهل العلم من المتشابهات في ذلك كله ، ولا يحصل الفرقان إلا بنور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده يرى في ضوئه حقائق الأمور ويميز بين حقها وباطلها وصحيحها وسقيمها ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠] (١) .

وقد مر قول عمر رضي الله عنه : « سوف تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

٢- الصبر وتقوى الله عز وجل :

فبالصبر وتقوى الله سبحانه تدفع الشهوة ويتنصر الإنسان على هواه ؛ لأنه قد يحصل للإنسان العلم بدين الله عز وجل ويتبين له الحق من الباطل ، ولكن إذا لم يكن لديه الصبر عن شهوات النفس والتقوى التي تحجزه عن مخالفة الصواب فإنه يضعف ويقع في المخالفة مع علمه بذلك .

أما إذا اجتمع العلم والبصيرة مع التقوى والديانة فإنه إذا بان الحق ولاح لم يكن أمام من هذه صفته إلا الإذعان والتسليم والانقياد ، وذلك لانتهاء الشبهة والشهوة في حقه ، وإلى هذا أشار ابن القيم رحمه الله تعالى في النقل السابق بقوله : « إن فتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر » اهـ .

ولكن إذا ضعف الصبر والتقوى ، ووجدت الغفلة عن الآخرة والوقوف بين يدي الله عز وجل ، وصاحب ذلك شيطان يزين ودنيا تتعرض بفتنها ؛ فالغالب عدم السلامة ، ولكن المخالف للحق هنا إما أن يكون لديه بقية من

(١) الروح (٢٦٠) .

تقوى وخوف من الله عز وجل فيعترف بذنبه ويستغفر منه ، ويتوب أو يكون - عياداً بالله - قد رقّ دينه وسيطر عليه هواه ، فأخذ يلتمس مبرراً لباطله ، ويبحث هنا وهناك عن شبهة يظهر بها باطله ومخالفته في قالب الحق والموافقة لدين الله ؛ وهذا هو الخداع والتلبيس ، ولا علاج له إلا تقوى الله سبحانه ، واليقين بالرجوع إليه تعالى في يوم عصيب : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج : ٢] ، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

نعم إنه لا يمنع من الوقوع في الباطل بعد العلم والبصيرة ، ولا يمنع من تلبيسه على الناس إلا الإيمان باليوم الآخر إيماناً جازماً وبقيناً صادقاً ، وإن لم يتذكر العبد هذا اليوم ويحسب له حسابه فلن يفيدته في ذلك العلم الذي اكتسبه ولم يعمل به .

فكم من عالم بالحق تنكب عنه وخالفه ، أما إذا انضم إلى العلم والبصيرة الصبر والتقوى والخوف من الحساب يوم القيامة ، فإن الشهوة ستنقمع والهوى سيُغلب ، وعندها يزول اللبس والتلبيس والخداع والمغالطة في دين الله عز وجل .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده على المحتالين على شرع الله بالحيل الباطلة :

« فحقيق بمن اتقى الله وخاف نكاله أن يحذر استحلال محارم الله بأنواع المكر والاحتيال ، وأن يعلم أنه لا يخلصه من الله ما أظهره مكرراً وخديعة من

الأقوال والأفعال ، وأن يعلم أن الله يوماً تكع^(١) فيه الرجال ، وتنسف فيه الجبال ، وترادف فيه الأهوال ، وتشهد فيه الجوارح والأوصال ، وتبلى فيه السرائر ، وتظهر فيه الضمائر ، ويصير الباطن فيه ظاهراً ، والسر علانية ، والمستور مكشوفاً ، والمجهول معروفاً ، ويحصل ويبدو ما في الصدور ، كما يبعثر ويخرج ما في القبور ، وتجري أحكام الرب تعالى هنالك على القصود والنيات ، كما جرت أحكامه في هذه الدار على ظواهر الأقوال والحركات ، يوم تبيض وجوه بما في قلوب أصحابها من النصيحة لله ورسوله وكتابه وما فيها من البر والصدق والإخلاص للكبير المتعال ، وتسود وجوه بما في قلوب أصحابها من الخديعة والغش والكذب والمكر والاحتيال ، هنالك يعلم المخادعون أنهم لأنفسهم كانوا يخدعون ، وبدينهم كانوا يلعبون ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣] . هـ .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى في ظلال قوله تعالى : ﴿ وَالِدَارُ الْأَخْرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] :

« نعم ؛ إنها الدار الآخرة ، إن وزنها في قلوب الذين يتقون هو وحده الذي يرجح الكفة ، وهو وحده الذي يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب في هذه الدنيا ، نعم إنها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها ، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها . . وإلا فما الذي يعدل في النفس البشرية الرغبة الملحة في حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه

(١) تكع : أي تضعف وتجن .

(٢) أعلام الموقعين (٣/ ٢١٤ ، ٢١٥) .

الأرض ؟ وما الذي يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغي ؟ وما الذي يهدئ فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع ؟ وما الذي يطمئنها في صراع الحياة الدنيا على النصيب الذي لا يضيع بفوات الحياة الدنيا ؟ وما الذي يثبتها في المعركة بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، وأعراض الأرض تفر من بين يديها وتناى ؟ والشر يتبجح والباطل يطغى ؟

لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى ، إلا اليقين في الآخرة ، وأنها خير للذين يتقون ، ويعفون ويترفعون ، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن ، ويمضون في الطريق لا يتلفتون ، مطمئنين واثقين ، ملء قلوبهم اليقين»^(١) اهـ .

وبعد ذكر السببين الرئيسين للوقاية من اللبس والتلبس ، وهما البصيرة في الدين التي تدفع بها الشبهة ، والصبر والتقوى اللذان تدفع بهما الشهوة نذكر فيما يلي بعض الأسباب المساعدة لتثبيت السببين السابقين ، وهي مندرجة في كلمة (التقوى) ، ولكن لا بأس بالنص عليها للتنبيه على أهميتها والتذكير بها .

٢- محاسبة النفس ومجاهدتها وتحسينها بالذكر والدعاء والعمل

الصالح :

حيث لا بد للمسلم من محاسبة دائمة للنفس ، ومجاهدة لها لتطويعها لشرع الله عز وجل ، والحذر من مصائد الشيطان الذي لا يفتأ يوسوس

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣٨٧) .

ويزين لها الباطل ، فإن لم يتفقد كل منا نفسه ويتعاهدها ويسد على الشيطان مداخله المتعددة ؛ فإن النفس تكون على حافة خطر في أن تنساق مع شهواتها وهواها؛ فيحصل من جزاء ذلك اللبس والتليس ، والتضليل والمغالطة إما بعلم أو بجهل .

وإن مما يؤكد أهمية المحاسبة الدائمة واليقظة الشديدة للنفس ومساربتها المتشعبة ؛ ما يحصل للكثير منا في يومه أو أسبوعه أو شهره من المغالطات والمعاذير الكاذبة والتبريرات الغامضة - سواء مع النفس أو مع الناس - ولكنها تكثر وتقل حسب التقوى وقوتها أو ضعفها في القلب . مع أنه يوجد من الدعاة والمصلحين نماذج فريدة في إخلاصها وصدقها وبعدها عن المداهنة والمغالطة والتليس ، نسأل الله لهم الثبات ، ونسأله سبحانه لنا جميعاً صدق المقصد في الأقوال والأعمال .

والآن نعرض لنموذج فريد من محاسبة النفس ، يقول ابن الجوزي رحمه الله :

« ما رأيت أعظم فتنة من مقاربة الفتنة ، وقلّ أن يقاربها إلا من يقع فيها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . قال بعض المعتبرين : قدرت مرة على لذة ظاهرها التحريم وتحتل الإباحة ، إذ الأمر فيها مردد ، فجاهدت النفس ، فقالت : أنت ما تقدر فلماذا تترك ، فقارب المقدور عليه ، فإذا تمكنت فتركت كنت تاركاً حقيقة . ففعلت وتركت ، ثم عاودت مرة أخرى في تأويل أرثني فيه الجواز ، وإن كان الأمر يحتمل ، فلما وافقتها أثار ذلك ظلمة في قلبي لخوف أن يكون محرماً ، فرأيت أنها تارة تقوى عليّ بالترخيص والتأويل ، وتارة أقوى عليها بالمجاهدة والامتناع ، فإذا ترخصت لم آمن أن

يكون ذلك الأمر محظوراً ، ثم أرى عاجلاً تأثير ذلك الفعل في القلب .

فلما لم آمن عليها بالتأويل تفكرت في قطع طمعها من ذلك الأمر المؤثر فلم أر ذلك إلا بأن قلت لها : قدّري أن هذا الأمر مباح قطعاً ، فوالله الذي لا إله إلا هو لا عدت إليه . فانقطع طمعها باليمين والمعاهدة ، وهذا أبلغ دواء وجدته في امتناعها ؛ لأن تأويلها لا يبلغ إلى أن تأمر بالحنث والتكفير ، فأجود الأشياء قطع أسباب الفتن وترك الترخص فيما يجوز إذا كان حاملاً ومؤدياً إلى ما لا يجوز ، والله الموفق»^(١) .

ولقد بلغ من خطر النفس والحذر من شرها أن كان النبي ﷺ قلما يخطب خطبة إلا واستعاذ بالله من شرها، وذلك فيما يعرف بخطبة الحاجة ، والتي في مطلعها : « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»^(٢) .

ولذلك ينبغي الإكثار من الأدعية التي يستعاذ فيها من شر النفس من مثل قوله ﷺ : « اللهم قني شر نفسي واعزم لي على أرشد أمري»^(٣) ، وقوله ﷺ : « أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه»^(٤) وغير

(١) صيد الخاطر : ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الترمذي - كتاب النكاح (١٦) ، باب : خطبة النكاح (١١٠٥) (٤/٦١) ، وأبو داود كتاب النكاح (٣٣) باب : في خطبة النكاح (٢١١٨) (٢/٥٩١) ، وأخرجه أيضاً غيرهما ، وصححه الألباني [صحيح الترمذي (١/٣٢٠ ، ٣٢١)] وهو جزء من خطبة الحاجة .

(٣) أحمد في المسند (٤/٤٤٤) ، والحاكم في المستدرک (١/٥١٠) ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٤) أحمد في المسند (٢/٢٩٧) ، والترمذي - كتاب الدعوات (١٤) باب : ما يقال في الصباح والمساء (٣٣٨٩) (٩/١٠٤) ، وأبو داود - كتاب الأدب (١١٠) باب : ما يقول إذا أصبح (٥٠٦٧) (٥/٣١٠ ، ٣١١) ، وصححه أحمد شاكر [التعليق على المسند (٧٩٤٨)

(١٧٥/١٧٠)] ، وصححه أيضاً الألباني [صحيح الترمذي (١/٢٧٠) (٣/٢٤٢)] .

ذلك من الأدعية التي تحذر من النفس وشرها وشهواتها ومساربه التي يدخل منها الشيطان إليها .

ولما كان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وهو الذي يزين للنفس شهواتها وشرورها جاء الحث على الاستعاذة من شره وشر وساوسه ؛ كما جاء في سورة الناس : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ، ٩٨] .

وأمثال هذه الأدعية التي يستعاذ بها من شر النفس والشيطان كثيرة في الكتاب والسنة ، وهي من أقوى الأسباب الواقية من الانحراف واللبس والتلبس .

ومن الأسباب القوية التي يتحصن بها من الشيطان ووساوسه ذكر الله عز وجل في أحوال اليوم والليلة ؛ فكلما كان اللسان رطباً بذكر الله تعالى والقلب يواطئه في ذلك ، كان الشيطان بعيداً ولا يستطيع اقتحام الحصن ؛ لأن ذكر الله سبحانه يحرقه ويمنعه من الدخول ، ولكن ما إن يغفل العبد عن ذكر الله تعالى حتى يكر مرة أخرى للوسوسة ؛ فهذا دأب الشيطان : في كر وفر على القلب ، فكلما ذكر العبد ربه خنس ، وإذا غفل وسوس .

ومن الأسباب الواقية من التباس الحق بالباطل مجاهدة النفس في عمل الصالحات ، والإكثار منها من غير إفراط ولا تفريط كما جاء في الحديث القدسي والذي منه : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته

عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . الحديث «^(١) ، فمن كان يسمع ويبصر ويمشي ويبطش بنور الله وهداه ؛ فإنه لن يخطيء الحق أبداً .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وبالضد من ذلك فإن كثرة الذنوب من أسباب الضلال والزيغ ؛ قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] .

وأخيراً ، فإن دعاء الله عز وجل واللجوء إليه سبحانه وسؤاله الهداية للحق والعمل به من أقوى الأسباب الواقية من اللبس والضلال ، كما جاء في استفتاح صلاة الليل : « اللّهُم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »^(٢) .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

« وشهدتُ شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستعصت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه ، واستنزال الصواب من عنده ، والاستفتاح من خزائن رحمته ؛ فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتابع عليه مدأً ، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ .

(١) أخرجه البخاري - كتاب الرقاق (٣٨) ، باب : التواضع (٦٥٠٢) [فتح (١١/٣٤٨)] .

(٢) أخرجه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصدها (٢٦) باب : الدعاء في صلاة الليل . . . (٧٧٠) (١/٥٣٤) .

ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علماً وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد فقد أعطي حظه من التوفيق ، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق ؛ فمتى أعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق ، فقد سلك به الصراط المستقيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم»^(١) .

٤- مصاحبة أهل العلم والورع :

ومما لا شك فيه ولا جدال أن الجليس يتأثر بجليسه وصاحبه ، سواء في الخير أو الشر ؛ وذلك عن طريق المؤانسة والمشابهة والقدوة ، وعليه ؛ فإن من الأسباب المانعة من الانحراف ولبس الحق بالباطل ؛ الجلوس مع أهل العلم والتقوى ، ومصاحبتهم ، ومشاورتهم ؛ لأنه بالعلم الذي عندهم تحترق الشهوات ، وبالتقوى والورع لدينهم تحترق الشهوات ، وبذلك يُسد على الشيطان البابان الرئيسان اللذان يدخل منهما ليلبس على النفس ويزين لها التلبيس .

والعكس بالعكس ؛ فما إن يصاحب المرء أهل الجهل والجدال ممن لم يؤتوا حظاً من التقوى والورع إلا ويتأثر بهم وينطبع بأخلاقهم وتشتبه عليه الأمور لضعف العلم والبصيرة ، أو يتعمد ترك الحق وتعميته على الناس لضعف التقوى وعدم الصبر على الشهوات .

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : « لولا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام ، كما ينتقى أطايب الثمر » ، وقال أيضاً : « اقتربوا من أفواه المطيعين واستمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم تجلى لهم أمور صادقة » .

(١) أعلام الموقعين (٤/١٧٨) .

ولعل مما يدخل في هذا السبب الإكثار من قراءة أخبار أهل العلم والتقوى والجهاد من أنبياء الله الكرام وصحبه الأجلاء ، والتابعين لهم بإحسان ؛ ففيهم الأسوة والقدوة والخير كله .

٥- العذر من الدنيا وعدم الركون إليها :

إن من أعظم أسباب الانحراف عن الحق والوقوع في الشبهات والمخالفات هذه الدنيا الخسيسة الغرارة ؛ فكلما انفتحت على العبد كثرت شبهاتها وانساق مع شهواتها المختلفة ، وعندما يرد ذكر الدنيا ؛ فإنه يُقصد بها كل ما أشغل عن الآخرة ، من متعها المختلفة ، والتي أجملها الله عز وجل في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

والانغماس في الدنيا وترفها وملذاتها تنتج عنه الغفلة عن الآخرة ، وتشتت الذهن والقلب ، وإعمال الفكر في الاستزادة منها والخوف على فواتها ؛ وهذا يؤدي إلى قسوة القلب ورقة الدين .

ومن هنا تبدأ النفس في الاستجابة لتزيين الشيطان وتثور الشبهات والشهوات في القلب ، فينشأ منهما الكذب والتدليس والتلبيس والطمع والجشع ، وخاصة في مثل عصرنا الذي نعيش فيه ، والذي كثرت فيه المعاملات المحرمة والشبهات ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .

ولذا كان من الأولى بمن أراد لنفسه السلامة من الدنيا وشبهاتها

وشهواتها أن يتخفف منها قدر الاستطاعة ، وأن يرضى منها بالقليل ؛ لأن هناك تناسباً طردياً - وخاصة في زماننا هذا - بين التكثر من أمور الدنيا وكثرة الوقوع في الشبهات والشهوات المؤدية إلى التدليس والتلبيس .

٦ - النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبيس والتدليس عليها :

إن الشعور بواجب النصح للأمة يقتضي من المسلم وبخاصة الداعية إلى الله عز وجل أن يبين الحق لأمته ويعري الباطل ويكشفه لها ، ولا يجعله ملتبساً عليها فتضل ؛ لأن الذي يرى أمته تُضلّك ويلبس عليها دينها فتعيش في عماية من أمرها ، ثم يتركها وهو يعلم الحق من الباطل ؛ إن من هذا شأنه يعتبر خائناً لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله عز وجل سائله يوم القيامة عن علمه فيم عمل به .

قال ﷺ : « الدين النصيحة . قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

وهذا فيمن رأى التضليل والتلبيس فلم يحذر منه ، ولم يكشفه للناس ، فكيف بمن باشر التلبيس والتضليل بنفسه عياداً بالله ؟ إن هذا بلا شك أكثر خيانة من سابقه ، وإن وزر وضلال من ضلله بتلبيسه هذا سيحمله فوق ظهره يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزار من ضللهم شيء .

والحاصل أن شعور المسلم بإثم وعاقبة التلبيس أو السكوت عليه من أقوى الأسباب المانعة من الوقوع فيه ؛ إن كان في القلب بقية من حياة وخوف من الله سبحانه والدار الآخرة ؛ لأن من كانت في قلبه المحبة الحقيقية

(١) أخرجه مسلم - كتاب الإيمان (٢٣) ، باب : بيان أن الدين النصيحة (٥٥) (١/٧٤) .

لهذا الدين وأهله لا يمكن أن يرى التضليل والتلبس من المفسدين المنافقين ، ثم يرضى لنفسه السكوت والوقوف موقف المتفرج ، بل لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال حتى يساهم قدر استطاعته في إبانة سبيل المؤمنين وإسقاط اللافعات الزائفة عن سبيل المجرمين وتعرية باطلهم وخداعهم ، كما مر بنا في الصورة الثامنة من صور التلبس ، وعندها تعرف الأمة من توالي ومن تعادي ، وعندها تتميز الصفوف ، ويتميز المؤمن من المنافق ، وكل هذا يحتاج إلى توضيحات باهظة ، لكنها رخيصة في سبيل الله عز وجل ؛ لأن نصر الله عز وجل الموعود لا يتم بدونها .



وبعد

فهذا ما يسره الله عز وجل في هذه العجالة حول هذا الموضوع الهام الذي يمس المسلم في عقيدته وأخلاقه ومجتمعه ، ولا أزعم أنني أحطت بجوانبه كلها ، ولكن حسبي إثارة هذا الموضوع والتذكير به ؛ لعل بعض علمائنا الكرام وإخواننا الدعاة يكملون ما نقص منه ، ويعدلون ما اعوجج منه .

وما ذكرته من صور التلبيس ذكرته على سبيل المثال لا الحصر ؛ فالصور كثيرة كثيرة ، خاصة في زماننا هذا الذي قل فيه العلم والورع ، ونجم فيه الجهل والنفاق .

وفي خاتمة هذا البحث أوصي نفسي الأمانة بالسوء وأوصي إخواني المسلمين بأن يتفقد كل منا نفسه ، ويبحث عن هذا الداء الخطير فيها فإذا وجدنا شيئاً من ذلك فعلينا التوبة الصادقة منه ، ولنبادر بقطع جذوره قبل أن يستفحل ، ولا نسوف في ذلك أبداً ؛ لأن التسويف وطول الأمل من عمل الشيطان وتلبيسه ، وأرى بهذه المناسبة نقل كلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في ذكر تلبيس إبليس على جميع الناس بطول الأمل ليكون ختام المسك لهذا البحث ، قال رحمه الله :

« كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبته ويقول له : لا تعجل وتمهل في النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة فيجعل له غرضه من الشهوات ويمنيه

الإنبابة، كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهي وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدد سوفه ، وكم من ساع إلى فضيلة ثبطه ، فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة . أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت .

ولا يزال يحجب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ؛ والحزم تدارك الوقت وترك التسوف والإعراض عن الأمل ، فإن المخوف لا يؤمن ، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير في خير أو ميل إلى شر طول الأمل . فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير إلا أنه يعد نفسه بذلك .

ولا ريب أنه من أمل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً ، ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جداً ، وقد قال ﷺ : «صل صلاة مودع»^(١) ، وقال بعض السلف : أندركم (سوف) فإنها أكبر جنود إبليس .

ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل كمثل قوم في سفر فدخلوا قرية فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فرجماً أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال ، فاغتبط المحترز ، واعتبط الأسف المفرط ؛ فهذا مثل الناس في

(١) رواه أحمد (٤١٢/٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٧١) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع

الدنيا؛ منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة .

فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ؛ فإن فتر في الظاهر بطن له مكيدة ، وأقام له كميناً ، ونحن نسأل الله عز وجل السلامة من كيد العدو وفتن الشيطان وشر النفوس والدنيا ، إنه قريب مجيب ، جعلنا الله من أولئك المؤمنين^(١) اهـ .

وأخيراً أسأل الله عز وجل أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل ، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



(١) تليس إبليس ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

فهرس المجلد الثاني الرسالة السادسة ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

٧ المقدمة
٩ أهمية الموضوع
١٧ حقيقة الصدق ومعناه
١٧ تعريف الصدق
١٨ حقيقة الصدق
٢٠ الفرق بين الصدق والإخلاص
٢٢ مجالات الصدق كما يجب
٢٢ ١ - صدق النية
٢٩ ٢ - الصدق في الأقوال
٢٩ أ - الصدق في نقل الأخبار
٣٠ ب - الصدق في الوعد والوفاء به
٣٠ ج - الوفاء بالعقود والعهود
٣٢ الصدق المذموم
٣٦ ٣ - الصدق في الأعمال
٣٧ ٤ - الصدق في مقامات الدين
٤٠ الآيات الواردة في معنى الصدق وفضله
٥٤ الأحاديث والآثار الواردة في معنى الصدق وفضله
٦٠ مواقف صادقة

- ٦٠ صديق الأمة الأكبر رضي الله عنه
- ٦١ مثال في صدق العزائم
- ٦١ مثال في الصدق مع الله عزوجل في الجهاد والوفاء بالعهد
- ٦٥ أمثلة في الصدق مع الخلق
- ٦٦ مثال في الصدق مع النفس
- ٦٦ مثال في الصدق في قول كلمة الحق
- مثالان في الصدق مع الله عزوجل في الثبات على الإيمان
- ٦٧ والصبر على البلاء
- ٦٧ أ - قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام
- ٦٨ ب - قصة ماشطة ابنة فرعون
- ٧٠ من علامات الصدق
- ٧٠ ١ - طمأنينة القلب واستقراره
- ٧١ ٢ - الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عزوجل
- ٧٤ ٣ - سلامة القلب
- ٧٥ ٤ - حفظ الوقت وتدارك العمر
- ٧٦ ٥ - الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك
- ٧٧ ٦ - تصديق القول بالفعل وموافقة الظاهر للباطن
- ٧٨ ٧ - الصدق في الحديث
- ٧٩ ٨ - إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور
- ٩ - الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر

- ٨١ من الآخرين
- ٨٢ ١٠ - الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عز وجل ..
- ٨٣ ١١ - التميز
- ٨٥ ١٢ - قبول الحق والتسليم له
- ٨٦ بعض الوسائل الجالبة للصدق
- ٨٦ ١ - توحيد الله عز وجل وصحة المعتقد
- ٨٧ ٢ - الإيمان باليوم الآخر واليقين بلقاء الله عز وجل
- ٨٨ ٣ - التخفف من الدنيا وعدم الركون إليها
- ٨٩ ٤ - مصاحبة الصادقين
- ٩٠ ٥ - النظر في عاقبة الصدق
- ٩١ ٦ - الإكثار من الأعمال الصالحة وإخفاء ما يمكن منها
- ٩٢ ٧ - تحري الصدق في الحديث وتجنب الكذب
- ٩٣ ٨ - الإكثار من دعاء الله عز وجل والاستغفار
- ٩٧ من ثمرات الصدق
- ١ - الحصول على الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله
- ٩٨ عزوجل
- ٩٩ ٢ - الطمأنينة والسكينة والثبات
- ١٠٧ ٣ - الاندفاع في الدعوة إلى الله عز وجل والتضحية في سبيله
- ١٠٩ ٤ - القبول عند الناس والتأثير فيهم
- ١١١ ٥ - الألفة والمحبة بين الناس

- ٦ - الخير والنماء والبركة ١١٣
- ٧ - تفريج الشدائد وكشف الكربات والنصر على الأعداء ١١٤
- ٨ - غفران الذنوب وتكفير السيئات ١١٦
- ٩ - الهداية للحق دلالة وانقياداً ١١٧
- ١٠ - الزهد في الدنيا والتزود للآخرة ١٢٢
- ١١ - حسن الخاتمة ١٢٢
- الخاتمة ١٢٥
- ١ - إلى علماء الأمة وطلاب العلم فيها ١٢٥
- ٢ - إلى دعاة الأمة ومجاهديها ١٣٠
- ٣ - إلى المرين في هذه الأمة ١٣٦
- ٤ - إلى الإعلاميين في هذه الأمة ١٤٠
- وبعد ١٤٣

الرسالة السابعة

﴿ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾

- المقدمة ١٤٧
- المبحث الأول : أهمية الموضوع ١٥٣
- المبحث الثاني : تعريفات : ١٥٩
- ١ - اللبس والتلبس ١٥٩
- ٢ - الأغاليط والمغالطات ١٦١
- المبحث الثالث : أسباب ووسائل لبس الحق بالباطل ١٦٥

- كل انحراف أو ضلال سببه فتنة الشبهات أو فتنة الشهوات
- أو مجموعهما ١٦٥
- وسائل لبس الحق بالباطل : ١٧٠
- ١ - التأويل واتباع المتشابه ١٧٠
- ٢ - كتمان الحق وإخفاؤه ١٧٧
- ٣ - تحريف الأدلة عن مواضعها ١٨٤
- المبحث الرابع : صور من لبس الحق بالباطل ١٩١
- ١ - الاحتجاج على شرعية الأنظمة المبدلة لشرع الله
والمستحلة لما حرمه سبحانه بآثار عن السلف : (كفر
دون كفر) ١٩١
- ٢ - الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي والرضا بالذل
والمهانة ١٩٦
- ٣ - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في
سبيل الله خشية الابتلاء وتعريض النفس للفتن ٢٠١
- ٤ - المداينة وضعف الولاء والبراء بحجة المداراة والتسامح ٢١٣
- ٥ - الانفتاح على الدنيا والركون إليها بحجة التعفف عن
الناس وإنفاق المال في وجوه الخير ٢٢٠
- ٦ - الاحتجاج بيسر الشريعة وضغط الواقع لركوب الحيل
المحرمة والأخذ بالرخص الشاذة ٢٢٣
- ٧ - التشهير بالدعاة المصلحين واغتيالهم بحجة النصيحة

- ٢٣٦ والتحذير من الأخطاء
- ٨ - التلبس على الناس برفع لافتات إسلامية تخفي وراءها
- ٢٤٢ الكيد للدين وأهله
- ٢٤٩ المبحث الخامس : الأسباب الواقية من لبس الحق بالباطل
- ١ - العلم والبصيرة بدين الله عز وجل وشرعه وبما يضاد
- ٢٥٠ ذلك
- ٢٥٢ ٢ - الصبر وتقوى الله عز وجل
- ٣ - محاسبة النفس ومجاهدتها وتحسينها بالذكر والدعاء
- ٢٥٥ والعمل الصالح
- ٢٦٠ ٤ - مصاحبة أهل العلم والورع
- ٢٦١ ٥ - الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها
- ٢٦٢ ٦ - النصح للأمة والحذر من عاقبة التلبس والتدليس عليها
- ٢٦٤ وبعد